٢٢

سماحة البيع والشراء

ما من إنسان إلا وتربطه بالناس علاقة بيع أو شراء . إنها المعاملة اليومية التى تجرى عليها حياة الناس وأرزاقهم ، وترتبط بها حاجاتهم ومعايشهم . ولهذا حرص الدين على أن يبين للناس المبادئ التى تقوم عليها هذه العلاقة الاجتماعية ، والآداب التى يجب أن يلتزمها الناس فى معاملاتهم المالية ، ليكون ذلك سبيلا إلى التعاون والمودة والثقة بين الناس .

يقول رسول الله ﷺ : « إن الله يحب سمحَ البيع ، سمح الشراء ، سمح القضاء » .

فمن كان سمحًا فى بيعه ، سمحًا فى شرائه ، سمحًا فى قضائه . . كان جديرًا بحب الله له . ومن أحبه الله نادت الملائكة فى الناس : أن الله يحب فلانًا فأحبوه ، فتقع محبته فى القلوب . .

والسماحة فى البيع أن يتخلق البائع بعدة خصال . . ولعل أولى هذه الخصال وأولاها هى أن يوفى الكيل والميزان . مادام قد تقاضى الثمن على وزن أو كيل معلوم .

يقول الله تبارك وتعالى :

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)[1] .

ويقول تعالى :

(وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)[2] .

ويقول تعالى :

(فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)[3] .

وتوعد الله من يخالف ذلك بالويل والعذاب الشديد فقال :

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)[4] .

ومن خصال السماحة فى البيع ألا يحتكر التاجر سلعته فيتحكم فى سعرها ويزيد فى ثمنها كما يريد ، مستغلاً فى ذلك حاجة الناس إلى الشراء . وحسب البائع من الربح ما يجزيه ، وما لا يرهق الناس ، وفيهم الغنى والفقير . إن البائع الذى يكتفى

---

(١) الآية ٣٥ سورة الإسراء .

(٢) الآية ٩ سورة الرحمن .

(٣) الآية ٨٥ سورة الأعراف .

(٤) الآيات ١ و ٢ و ٣ سورة المطففين .

بالربح القليل محتسباً ما زاد على ذلك عند الله ، إنما يدخر عند الله رصيداً ينمو أضعافاً مضاعفة .

ولقد ضرب عثمان بن عفان – رضى الله عنه – مثلا عالياً للسماحة فى هذا المعنى يذهب إلى أبعد مما يخطر على بال . . فقد أصاب الناس فى عهد أبى بكر – رضى الله عنه – قحط شديد ، فذهبوا إليه وقالوا : ياخليفةرسول الله إن السماء لم تمطر والأرض لم تنبت وقد توقع الناس الهلاك . . فماذا نصنع ؟

قال : انصرفوا واصبروا . . فإنى أرجو ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم .

فلما كان آخر النهار ، وردت الأنباء بأن عيراً لعثمان بن عفان قد قدمت من الشام وتصبح فى المدينة . فلما جاءت خرج الناس يتلقونها فإذا هى ألف بعير موسوقة برًّا وزيتًا وزبيبًا ، فأناخت القافلة عند باب عثمان ، فلما جعل أحمالها فى داره جاء التجار وجرى بينه وبينهم حديث عجيب . . .

قال عثمان للتجار وقد تحلقوا حوله : ما تريدون ؟

قالوا : إنك لتعلم ما نريد . . بعنا من هذا الذى وصل إليك ، فإنك تعلم حاجة الناس إليه .

فقال عثمان : حبًّا وكرامة ، كم تربحوننى على شرائى ؟

قالوا : الدرهم درهمين . . قال : أُعطيت زيادة على هذا . . .

قالوا : أربعة دراهم . قال : أعطيت أكثر .

قالوا : تربحك خمسة . قال : أعطيت أكثر .

فقالوا : ما فى المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا أحد إليك ، فمن الذى أعطاك أكثر مما أعطينا ؟

قال : إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، فهل عندكم زيادة ؟

قالوا : لا . فقال : فإنى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة على المساكين وفقراء المسلمين !

وإن من السماحة فى البيع ، أن يكون البائع صادقًا فى عرضه سلعته ، فلا يظهر منها الجانب الطيب ويخفى تحته الجانب المعيب ، أو يبيع السلعة المعيبة دون أن ينبه المشترى إلى ما فيها من عيب حتى يكون على بينة من أمره . ذلك من الغش الذى نهى عنه الرسول ﷺ حيث قال : « من غش فليس منا » .

ولقد قال الرسول ﷺ : « المتبايعان بالخيار مالم يتفرقا . فإن صدقا وبيَّنا بورك فى بيعهما ، وإن كذبا وكتما فعسى أن يربحا ربحًا ويمحقا بركة بيعهما » .

ومن آداب البيع ألا يتخذ البائع من الحلف بالله وسيلة لترويج سلعته بالثمن الذى يريد ، قال ﷺ : « الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة » أى أن الحلف قد تؤدى إلى رواج السلعة ونفادها ، ولكنها تؤدى كذلك إلى ضياع البركة فيما عاد على صاحبها من ربح .

ولقد أقسم رجل بالله أنه يبيع سلعته بالثمن المفروض لا يزيد عليه شيئًا وكان كاذبًا فيما يقول ، فنزل قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[1] .

هذا عن السماحة فى البيع ، فماذا عن السماحة فى الشراء ؟

إن سمح الشراء هو الذى يشترى السلعة بسعرها المناسب ، والذى لا يسرف فى

---

(١) الآية ٧٧ سورة آل عمران .

المساومة : وإذا عرضت عليه سلعة لم يستغل حاجة صاحبها فيبخسه ثمنها .

وهو الذى لا يزيد على شراء أخيه ، فإن رأى رجلا يشترى سلعة تركه حتى يتم الشراء أو ينصرف دون ذلك . فلا يدخل بين البائع والمشترى بثمن أكبر يعرضه ليستأثر بالسلعة لنفسه دون صاحبه ، أو يرفع ثمن السلعة بغير حق .

أما السماحة فى القضاء فهى مطلوبة من البائع والمشترى على السواء ، فإذا اشتريت شيئًا بدين إلى أجل معلوم وجب أن تؤدى الدين فى موعده فلا تماطل صاحب الدين فى القضاء ولا تخلف موعدك معه . وكما ذهبت إليه تطلب السلعة التى تحتاج إليها وليس معك ثمنها فأعطاك إياها ولم يحسبها عنك ، فكذلك يجب عليك أن تعود إليه لتؤدى له دينه وتقضى له حقه .

وعلى البائع أو المقترض كذلك أن يكون سمح القضاء عند استيفاء دينه . فإذا حل موعد أداء الدين ، ولم يؤد إليه المدين حقه نظر فيما يقدمه إليه من أعذار ، فإن كان صادقًا أمهله حتى يدبر أمره ويوفى بدينه . يقول الله تعالى :

(وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ) (١) .

وقال ﷺ : « من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله عز وجل فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » .

وإن من السماحة أن يلتزم الإنسان فى طلب ما له من دين الأسلوب اللين فى القول والإسرار فى الطلب ، فلا يعنف فى اقتضاء الدين أو يفضح صاحبه بين الناس .

---

(١) الآية ٢٨٠ سورة البقرة .

جاء يهودى إلى رسول الله ﷺ يتقاضاه ديناً عليه ، فأغلظ اليهودى فى الطلب وقال للرسول : إنكم يابنى عبد المطلب مطل . فغضب عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – وهم أن يبطش باليهودى لجرأته على رسول الله ، ولكن الرسول ﷺ نهاه عن ذلك وقال له : كنا أحوج إلى غير هذا منك ياعمر . . تأمره بحسن التقاضى ، وتأمرنى بحسن القضاء . . وكان هذا الدين لم يحل موعده ، ومع ذلك قال الرسول ﷺ لعمر ما قال ، وزاد على ذلك بأن أمره أن يعطى اليهودى شيئاً من المال جزاء ما روّعه .

٢٣

كيف تكسب ود أخيك ؟

إن كسب المودة واستمالة القلوب ، من القيم الدينية التى تدعم روابط المجتمع ، وتشيع المحبة والتعاون بين الناس .

ولقد قال رسول الله ﷺ :

« ثلاث يصفين لك ود أخيك : تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه » .

وبذلك أوجز الرسول أسباب المودة الصافية فى ثلاث خصال ، كل منها سهل يسير ، وهو مع ذلك عميق الأثر فى النفوس .

أولها أن تسلم على أخيك إذا لقيته ، هذه التحية الطيبة التى تصفى لك وده ، وتسكب فى نفسه الحب ، وتشيع حوله الطمأنينة والسلام . ولهذا كانت كلمة السلام هى أفضل تحية للمؤمنين حين يلقون ربهم يوم القيامة . قال الله تعالى :

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سلام)[1] .

وبهذه التحية تستقبلهم الملائكة يوم الفزع الأكبر :

(يَقُولُونَ : سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[2] .

وعندما يدخلون الجنة :

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا)[3] .

كلمة طيبة تصفى لك ود أخيك ، أن تقول له حين تلقاه : السلام عليكم ورحمة الله ، فيرد لك هذه التحية بمثلها أو أحسن منها . .

وللسلام آداب تزيد من جمال التحية وأثرها فى النفوس : منها أن يسلم القليل على الكثير ، والمار على القاعد ، والراكب على الماشى ، والصغير على الكبير ، ولقد مر أنس بن مالك – رضى الله عنه – على صبيان فسلم عليهم ، وقال : كان النبى ﷺ يفعل ذلك .

وسئل رسول الله ﷺ : أى الإسلام خير؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » . ذلك أن إفشاء السلام لا ينبغى أن يقتصر على من تعرف من الناس ، لأنه إذا كان أثره فيمن تعرف أن يصفى لك وده ، فإنه

---

(١) الآية ٤٤ سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٣٢ سورة النحل .

(٣) الآيتان ٢٥ و ٢٦ سورة الواقعة .

عند من لم تعرف يفتح لك قلبه ويكون سببًا من أسباب التعرف والتآلف ، وسبيلا إلى تكوين المجتمع الذى يسوده التعاطف والمودة والسلام .

ولقد يكون بين الإنسان وأخيه جفوة أو خصام ، وهنا تظهر قوة الخلق وسماحة النفس والتفاضل بين الناس . يقول الرسول ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيصد هذا ، ويصد هذا ، وخيرهما الذى يبدأ السلام » .

ذلك لأن البادئ بالسلام أقوى إرادة وأصفى نفسًا ، إنه قد تغلب على أسباب الخصومة ودواعى القطيعة ، فقابل الإساءة بالإحسان إن كان قد أسىء إليه ، أو سعى إلى طلب الصفح إن كان هو الذى أساء إلى صاحبه . وعن طريق المبادأة بالتحية يلتقى الاثنان فى ظل المودة والسلام .

أما الخصلة الثانية التى أوصى بها الرسول ﷺ فهى أن توسع لأخيك فى المجلس . والله سبحانه وتعالى يقول :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُم تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ)[1] .

إن من أسباب المودة أن تفسح لأخيك مكانًا إلى جوارك ، فلا تستأثر بالجلوس وهو واقف ، أو تستأثر بالجلوس على فراش وتتركه جالسًا على الأرض . إن ذلك ليس من الخلق الاجتماعى فى شىء . .

وتطالعنا هذه الصورة فى مجتمعنا الحاضر متمثلة فى مشكلة المواصلات وما يعانيه الناس وبخاصة الشيوخ والضعفة والنساء من عنت وإرهاق . الأمر الذى يجعل التفسح فى المجالس واجبًا يقتضيه تكافل المجتمع فى مواجهة هذه المشكلة .

قد يكون هذا الواقف فى المركبة العامة مثلا شيخًا كبيرًا أو سيدة تحمل طفلها ،

---

(١) الآية ١١ سورة المجادلة .

أو فتاة تتعرض لمتاعب الزحام ، فماذا يضيرك لو أفسحت إلى جانبك مكانًا تجلس فيه هذه السيدة أو الفتاة ، أو يستريح فيه هذا الشيخ الكبير؟

قد تقول إن المقعد مخصص لثلاثة ، نعم إنه لكذلك . ولكنه يتسع لأربعة ولا يضيق بهم إذا ما تفسحوا فى مجلسهم وانضم بعضهم إلى بعض .

وهل يكون هذا هو منطقك لو كنت أنت الواقف تعانى من رجة المركبة وشدة الزحام . وغيرك يجلس وقد تمدد فى المكان طولا وعرضًا وهو منتفخ الجسم والأوداج ؟

فى مثل هذا الموقف يتمثل حديث الرسول ﷺ على أروع صورة وأجمل توجيه حين يحث على أن يوسع الإنسان لأخيه فى المجلس ، وما يحدثه ذلك من أثر طيب فى النفوس ، يشيع المودة ويرسى تقاليد التعاطف والتعاون بين الناس .

وما تفعله أنت مع غيرك اليوم حين تفسح له مكانًا إلى جوارك ، بروح عطوف ونفس كريمة ، يفعله غيرك معك اليوم أو غدًا ، وقد يفعله مع أبيك الشيخ أو أمك أو أختك ، فيرتد إليك جميلك ، وتجنى ثمار معروفك .

ولقد قال الرسول ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وهناك مرتبة أعلى من ذلك لمن أراد ، هى مرتبة الإيثار ، وقد أثنى الله على قوم فقال :

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[1] ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ[2] نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[3] .

---

(١) حاجة .

(٢) يحفظ من البخل .

(٣) الآية ٩ سورة الحشر .

ومع ذلك فهل كثير على الشاب القوى مثلا أن يتخلى عن مكانه للشيخ الكبير؟ إنها قد تكون دقائق وقد تكون ساعة أو بعض ساعة ، فماذا لو آثر هذا الشيخ الكبير بمكانه ، وهو منه فى مقام الوالد أو الجد؟

وصدق الله تعالى إذ يقول :

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

ذلك لأن الشح داء يصيب النفس بالجدب والغلظة . والشح لا يكون فى المال وحده ، ولكنه كذلك يكون فى الخلق والعاطفة . إن من الناس من يبخل بالكلمة الطيبة ، أو بالبسمة الرقيقة ، أو المجاملة التى لا تكلفه شيئًا أو لا تكلفه إلا اليسير ، لأن نفسه مريضة بداء الشح ، ولو تخلص من هذا الداء لطابت نفسه ولذاق لذة العطاء والسخاء ولو بالكلمة الطيبة أو البسمة الرقيقة .

وأما ثالثة الخصال التى تصفى لك ود أخيك ، فهى أن تدعوه بأحب أسمائه إليه . إن الرسول ﷺ يتحرى لك الأسباب التى تكسب بها قلب أخيك ، وتقوى بها رابطة المحبة بينك وبينه ، ومن هذه الأسباب أن تدعوه بأحب أسمائه إليه . فلا تناديه بصفة تذكره بعاهة فيه ، أو بلقب يكرهه . إن ذلك يؤذى شعوره ويثير فى نفسه الحقد والمرارة والكراهية لك وللمجتمع .

وإنما يجب أن تدعوه بما يشعره بالمودة كأن تناديه : ياأبا فلان ، إثارة لعاطفة الأبوة الحبيبة إلى نفسه ، أو تدعوه بما يشعره بالتكريم كأن تناديه بلقبه العلمى أو الفنى ، أو بما ينتظره من هذه الألقاب ، تقديرًا لمكانته ، وإشادة بفضله ، أو إثارة لمشاعر الطموح وحفزًا للهمة عند من لا يزالون على الطريق .

إنها التحية الطيبة التى تلقى بها أخاك فينفتح لك قلبه ، والمجاملة الكريمة تفسح له بها مكانًا إلى جوارك فينفسح بينكما مجال الحب والإخاء ، والنداء الجميل تعزف به على سمعه أحب الأسماء .

٢٤

أحب الأعمال بعد الفرائض

« أحب الأعمال إلى الله بعد أداء الفرائض ، إدخال السرور على المسلم » .

وهذا الحديث النبوى يبدأ بالإشارة إلى الفرائض الدينية ، ويقول إن أداء هذه الفرائض أحب الأعمال إلى الله ، وذلك لأن هذه الفرائض التى شرعها الله إنما تستهدف تحقيق معنى وجود الإنسان فى هذه الحياة ، والله تبارك وتعالى يقول :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ) (١) .

كما تستهدف هذه الفرائضَ توثيق صلة الإنسان بربه وتصحيح اتجاهه إلى الله ، وتقنين سلوكه فى الحياة ، وبذلك يكون له ميزانه فى نفسه يعرف به ما يحل وما يحرم ، ويكون رقيباً على نفسه فى كل ما يقول أو يعمل .

---

(١) الآية ٥٦ سورة الذاريات .

وكذلك فإن هذه الفرائض تجمع من الأعمال الصالحة ، وتحقق من الآثار الطيبة فى سلوك الإنسان وحركة المجتمع أعظم قدر وأوفى نصيب ، إنها تضع للإنسان منهجًا تصلح به حياته ، وتقوم علاقته بالله وبالناس على أسس قوية ودعائم راسخة من الإخلاص والتعاون على البر والتقوى . وبذلك تتحقق سعادة الفرد وسعادة المجتمع الذى يعيش فيه .

فما من فريضة يتعبد بها الإنسان لله تعالى إلا عادت على الإنسان ثمرتها ، وكان هو المقصود بالإفادة منها ، فإن الله تعالى غنى على العالمين ، لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه . يقول الله تبارك وتعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) (١) .

ولهذا كان أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله ، وأرفعها منزلة عنده ، وأجدرها بالرضا والقبول ، ثم تجىء بعد ذلك أعمال لها المنزلة الكبرى والثواب العظيم والميزة على سائر الأعمال ، ومنها فى هذا الحديث النبوى الشريف : إدخال السرور على المسلم .

وذلك لأن الإسلام يحتفل بالحياة ، ويحرص على أن يوفر للناس فيها أسباب السعادة ، وأن يتيح لهم الاستمتاع بزينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، وأن يدخل على أنفسهم البهجة والسرور فى غير مأثم ولا خروج على حدود القصد والاعتدال .

ولما كانت الحياة متعددة الجوانب ، فيها ما يبعث على البهجة والسرور ، وفيها ما يثير الحزن والقلق ، فإن الإنسان فى حياته معرض لهذا وذاك ، وعلى قدر تماسكه

---

(١) الآية ١٥ سورة الجاثية .

ونظرته الشاملة للأمور تكون مواجهته لما يصيبه من هموم الحياة ، على أن الإنسان لا يستطيع وحده أن يواجه هذه الهموم ، فهو فى حاجة إلى من يواسيه فى محنته ، ويشجعه إذا فترت همته ، ويبعث فى نفسه نور الأمل إذا أطبقت عليه ظلمات اليأس ، ويرد إلى قلبه خفقات السعادة ، وإلى وجهه طلاقة الفرح والسرور ، ولهذا كان إدخال السرور على المسلم عملا ترقى مرتبته إلى هذا المستوى العالى بعد أداء الفرائض وهى أعظم الأعمال وأحبها إلى الله .

ومن ذلك أن المسلم قد يخطئ ، فتزل قدمه وينحرف عن سواء السبيل ، كأن يقترف ذنبًا أو يرتكب معصية ، وعندما يستيقظ ضميره يستشعر فداحة الذنب وسوء العاقبة ، فتسود الدنيا فى عينيه ، ويستولى اليأس على قلبه ، وقد يحمله ذلك على الانغماس فى الخطايا والذنوب مادام لا يجد أمامه طريقًا للنجاة ولا يتشوف بصيصًا من الأمل .

فما هو الواجب عليك نحو أخيك المسلم وهو يعانى هذه المحنة ويتعرض لهذا البلاء ؟ هل تفتح عليه أبواب جهنم وتصب فى أذنيه وقلبه آيات العذاب والوعيد ، وبذلك تزيده عذابًا على عذابه وتلقيه فى غيابات اليأس والقنوط . أم تفتح أمامه أبواب الجنة وتسكب فى روحه آيات الرحمة والمغفرة ، وبذلك تدخل السرور على نفسه ، وتنقذه من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، ومن لجة الخطيئة إلى شاطئ التوبة ، ومن ظلام اليأس إلى نور الأمل والرجاء ؟

يقول الله تبارك وتعالى :

(قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا[1] مِنْ

---

(١) تيأسوا .

رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[1] .

إنها دعوة مضمخة إلى ساحة الرحمة والغفران . لكل من يستشعر الندم ويقبل على الله بقلب سليم .

ويقول الرسول ﷺ : لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه . فوضع رأسه فنام نومة . فاستيقظ وقد ذهبت راحلته . فطلبها . . حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت . . ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده عليها زاده . . طعامه وشرابه . . فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده .

وتلك بشرى من الرسول ﷺ تغمر القلب بالسرور وتملأ النفس بهجة وسعادة ، تحملها إلى أخيك المسلم وهو يعاني آلام محنته . ويتقلب على أشواك حيرته . فإذا هو بهذه البشرى سعيد كل السعادة . كأنما انفتح له بها باب من أبواب الجنة . وقد كان على شفا حفرة من النار .

وصورة أخرى من صور إدخال السرور على المسلم ، كان أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - في جولة خلال الديار متنكرًا تحت جنح الظلام ، ليتعرف عن كثب أحوال المسلمين ، فترامى إلى سمعه أصوات صبية يبكون ، فطرق الباب فإذا امرأة تفتح له ، فيسلم عليها ثم يقول :

- ما بال هؤلاء الصبية يبكون ؟

فتجيب : إنهم جياع وليس عندي ما أطعمهم به .

فيقول : وما هذا الذي توقدين عليه في القدر ؟

---

(١) الآية ٥٣ سورة الزمر .

فتجيب : ماء وحصى . . أعللهم به حتى يناموا . الله بيننا وبين عمر .

ويفزع عمر من هذه الكلمة فيقول : وما يدرى عمر بكم ياأختاه ؟

فتجيب المرأة : عجبًا . . يتولى أمرنا ويغفل عنا !

وبهذه الكلمات تحولت النار التى تحت القدر إلى قلب عمر ، وتحولت دموع الأطفال الجياع كذلك إلى قلبه ، لا لتطفئ هذه النار ولكن لتزيدها اشتعالاً . . فعاد مسرعًا إلى بيت المال . وحمل على كتفه ما استطاع من دقيق وسمن وعسل ، ورجع إلى المرأة فجلس يساعدها فى إعداد الطعام ، وإن الدخان ليتخلل لحيته وهو يعالج النار حتى نضج الطعام ، ولم يغادر الدار إلا بعد أن أكل الصبية حتى شبعوا ، ثم أخذوا بعد شبعهم يتضاحكون .

وقالت المرأة لهذا الطارق الكريم وهى تودعه : جزاك الله خيرًا . أنت أولى بهذا الأمر من عمر .

وابتسم أمير المؤمنين ، فقد ردت إليه هذه المرأة اعتباره وهى لا تدرى ، وكانت ابتسامته كذلك انعكاسًا للسرور الذى أدخله على قلب هذه المرأة الفقيرة وأطفالها الجياع . وما أشرق الصباح حتى كان لهذه الأسرة راتب مقرر من بيت المال .

هذا ، وإن الأبواب التى يدخل منها السرور على المسلم لكثيرة ، وإنها لميسرة لكل من أراد . . أن تلقى أخاك المسلم بوجه طلق ، أن تحمل إليه بشرى تشرح صدره ، أن تسعى فى قضاء حاجته . أن تعوده فى مرضه ، أن تتفقده إذا غاب عنك ، أن تهدى إليه وتتقبل هديته . . كل هذه أبواب يدخل منها السرور على المسلم ، فيهش لها قلبه ، وينشرح صدره ، وتبتهج نفسه ، وتطيب روحه ، وتخف عنه أثقال الحياة وهموم العيش ، ويستشعر الرضا والسعادة فى مجتمع يتبادل أفراده هذه المعانى الجميلة والمشاعر الكريمة .

٢٥

قول معروف . . .

قال رسول الله ﷺ :

« لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » .

وفى هذا الحديث الشريف تعميق لمعنى المعروف فى النفوس ، بحيث يكون طبيعة للإنسان وسجية من سجاياه ، يجرى منه فى سماحة ويسر لا تكلف فيه ولا معاناة . ذلك لأن المعروف حركة نفسية قبل أن يكون عملا ماديًا ، وقيمته فى دوافعه وأهدافه لا فى حجمه وصورته .

يقول الله تبارك وتعالى :

(قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى)[1]

---

(١) الآية ٢٦٣ سورة البقرة .

فإذا استقر هذا المعنى فى النفوس لم يثقل عليها أداء المعروف لأنه لن يكلفها ما لا تطيق . بل إنه بذلك يساعدها على أن يكون أداء المعروف حركة طبيعية ووظيفة سلوكية تؤديها استجابة للفطرة السليمة . كما تؤدى الزهرة وظيفتها حين تمتع الأنظار بألوانها البهيجة وتنعش النفوس بعطرها الفواح .

ولهذا نهى الرسول ﷺ عن أن يتكلف الإنسان لضيفه فيما يقدم له من طعام . لأن التكلف لا تطيقه النفوس ولا صبر لها على احتماله إذا ما تكررت أسبابه . وبذلك يضيق الإنسان بضيفه ويقع التباعد والتقاطع بين الناس .

والمعروف باب من أبواب الخير يسره الله لعباده . وإن منه بذل الصدقة بمعناها الإنسانى الواسع العميق . الذى لا يقتصر على الغنى دون الفقير ، ولا على القادر دون العاجز ، ولا على القوى دون الضعيف . . بل الجميع ميسرة أمامهم أبواب هذا الخير ، متاحة لهم أسبابه .

يقول رسول الله ﷺ :

« ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة فى كل يوم طلعت فيه الشمس . قيل يارسول الله ، من أين لنا صدقة نتصدق بها ؟ فقال : إن أبواب الخير لكثيرة : التسبيح والتحميد ، والتهليل والتكبير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتميط[1] الأذى عن الطريق ، وتسمع الأصم ، وتهدى الأعمى ، وتدل المستدل عن حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف . . فهذا كله صدقة منك على نفسك . وتبسمك فى وجه أخيك صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة » .

وهذا المعنى يعطى الصدقة مفهوماً يحقق كرامة الإنسان ، ويشعره العزة والقدرة

---

(١) تبعد .

على العضاء . وأنه إن كانت تنقصه بعض الأسباب . فإنه يملك أسبابًا أخرى يفيد بها المجتمع ويرد له بها ما عليه من دين . فليست الصدقة إذن ، وليس بذل المعروف . أمرًا يملكه الغنى دون الفقير ويجود به عليه . أو يستأثر به القوى ويتفضل به على الضعيف . ولكن أفراد المجتمع فيه سواء . كل منهم يستطيع أن يعطى وأن يكون صاحب اليد العليا . وأن تكون له مواقف إيجابية نافعة بين الناس . إذا ما طرق أبواب الخير والمعروف وإنها لكثيرة . . وهل يعجز إنسان - مثلا - مهما يكن أمره عن أن يميط الأذى عن الطريق . أو أن يدل المستدل عن حاجته . أو أن يلقى أخاه بوجه طلق ؟

إن إماطة الأذى عن الطريق وهى عمل يسير ، قد تحفظ على إنسان حياته ، أو تحول دون تعرضه لأذى شديد . وكم من حوادث أليمة تقع بسبب عثرة قدم ، فهل يستهين الإنسان بالحجر أو العظم أو قشرة الموز يرفعها عن الطريق ، فينقذ حياة أو يجنب إنسانًا مزالق الخطر ، وهل يحقر هذا المعروف لأنه لم يكلفه شيئًا من الجهد والمال ؟

وأن تلقى أخاك بكلمة طيبة ووجه طلق[1] أمر يسير ، ولكن أثره فى نفس أخيك أثر عظيم . إنه يفتح لك مغاليق قلبه ، فإن كان بينك وبينه مودة ازدادت هذه المودة عمقًا وازدهارًا ، وإن كان بينك وبينه جفوة أو عداء فعلت الكلمة الطيبة والبسمة الحانية فعلها فى نفسه :

(فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ)[2] .

---

(١) منبسط .

(٢) الآية ٣٤ سورة فصلت .

ويقول الله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ . تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (١) .

فلا يحقرن أحد كلمة ينطق بها لسانه ، أو بسمة تنفرج عنها شفتاه . . يكون لها من الأثر الطيب فى النفوس ما لا يبلغه بوسائل أخرى قد تكون أعظم قدرًا وأعز منالا .

ألا وإن من الأدب النبوى أن يكون هذا سلوكك حتى مع من تسىء الظن به أو تعرف عنه السوء ، لأنك إنما تعامله بما يليق بك لا بما يستحق . فقد روت السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن رجلا استأذن على النبى ﷺ فلما رآه مقبلا قال : « بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة . فلما جلس تطلق النبى ﷺ فى وجهه وانبسط إليه !

فلما انطلق الرجل قالت له عائشة : يارسول الله ، حين رأيت الرجل قلت كذا وكذا ، ثم تطلقت فى وجهه وانبسطت إليه !

فقال رسول الله ﷺ :

ياعائشة ، متى عَهِدْتِنِى فحاشًا ؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره » .

هذا هو المعروف ، وذلك أثره فى النفوس . ولهذا كان الأمر بالمعروف والدعوة إليه واجبًا على كل مسلم يحب للناس ما يحب لنفسه ، ويرجو لهم مثل ما يرجو

---

(١) الآيتان ٢٤ و ٢٥ سورة إبراهيم .

لنفسه من الخير . والأمر بالمعروف يقتضى النهى عن المنكر . وكلاهما واجب يفرضه صالح المجتمع . يقول الرسول ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

وإذا كان الرسول ﷺ قد حث على أداء المعروف بين الإنسان وأخيه الإنسان حتى فى الأمور اليسيرة ، لتتكون عنده عادة الخير ، وتفيض فى نفسه ينابيع البر ، ولا تتوقف فى نفسه حركة المعروف . . فإن هذه المشاعر الخيرة حين تصبح طبيعة فى الإنسان تمتد فيوضها فتشمل كل ما يحيط به ، فإذا هو يتعاطف مع كل كائن حى . وفى هذا أيضًا لا يحقرن الإنسان ما يبذل من معروف . إن قطرات من الماء تقدمها إلى حيوان يلهث من العطش عمل يسير ولكن ثوابه يتضاعف عند الله حتى ليوازى ثواب أعظم الأعمال . . . قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له » .

قالوا : يارسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجرًا ؟ فقال : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

وليس أروع من هذه الصورة التى يمثلها هذا الحديث النبوى الشريف . . إن حفنة من الماء قدمها الرجل إلى هذا الكلب الذى كان يلهث من شدة العطش ، رفعته إلى هذه المنزلة العالية وذلك المقام المحمود . وهل هناك أسمى وأكرم من أن يكون الإنسان موضع الشكر والحمد ، وأن يكون الله – جل جلاله – هو الشاكر الحميد !

وهناك من المعروف ما يؤديه الإنسان ولا يكاد يحس به ، ولكن أجره عند الله مكفول . . إنه ثمرة دائمة من ثمرات عمله الصالح . ومن ذلك ما جاء فى الحديث

النبوى الشريف حيث يقول : « ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » .

فما أكثر وما أيسر وجوه المعروف . وما أعظم ما يجزى به الإنسان على معروفه . ولو كانت قطرات ماء تبل بها ظمأ حيوان . أو سنبلة قمح تأكل منها الطير ، أو كلمة طيبة أو بسمة حانية تلقى بها أخاك . .

٢٦

شريعة الحرب والسلام

الحرب من شريعة الحياة ، منذ هبط الإنسان الأول على هذه الأرض وقد ركبت فيه غرائز الخير والشر. وكأن الملائكة قد ألهموا هذه الصورة للبشرية فى حوارهم مع الله ، تبارك وتعالى :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً . قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ، وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[1] .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى

---

(١) الآية ٣٠ سورة البقرة .

وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)[1] .

وهبط مع آدم وحواء عدوهما اللدود إبليس ، بعد أن طرد من الجنة وحقت عليه اللعنة إلى يوم القيامة . فقال يخاطب الله – تبارك وتعالى – متوعدًا آدم وذريته :

(لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)[2] .

فيقول سبحانه :

(إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)[3] .

ومنذ ذلك التاريخ الأول للبشرية على هذه الأرض ، بدأ الصراع بين بنى آدم بعضهم وبعض ، وبدأ الصراع بينهم وبين إبليس فيما يزين لهم من أسباب الغواية . وما يثير فى نفوسهم من نزغات الشر والعدوان .

---

(١) الآيات ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٣٩ و ٤٠ سورة الحجر .

(٣) الآية ٤٢ سورة الحجر .

ومن عجب أن أول جريمة قتل بين بنى آدم قابيل وهابيل ، إنما كانت على طريق العبادة ، حين قدم كل منهما « قرباناً » لله ، فتُقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . وهذا يشير إلى معنى دقيق ، هو التحذير من مداخل الشر حتى فى مجال الخير .

يقول القرطبى : إن قابيل تقرب بحزمة من سنبل ، لأنه كان صاحب زرع ، واختارها من أردأ زرعه ، ثم إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها .

وكان قربان هابيل كبشاً لأنه كان صاحب غنم ، أخذه من أجود غنمه .

فتقبل الله قربان هابيل ، ولم يتقبل قربان قابيل .

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ . قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ، قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (١) .

هى إذن بذور الحرب استقرت منذ بداية البشرية على هذه الأرض ، وبما ركب فى النفوس من نزعات الخير ونزغات الشر ، وهذا الصراع الطويل الممتد بين الحق والباطل ، بين الظلم والعدل ، بين القوى والضعيف ، سواء فى ذلك بين

---

(١) الآيات من ٢٧ إلى ٣٠ سورة المائدة .

الأفراد بعضهم بعضًا ، أو بين الحكام والرعية ، أو بين الدول والشعوب .

فالحرب إذن من شريعة الحياة . إذا لم يشنها الإنسان باغيًا معتديًا على غيره ، كان عليه أن يخوضها لرد البغى ودحر العدوان .

ومن هنا تختلف سياسة الحرب ومشروعية الجهاد .

ولقد وعت ذاكرة البشرية على امتداد عصور التاريخ ، وما تزال تشهد على مسارح الحياة فى مختلف أرجاء الأرض ، حروبًا ومعارك لا تنطفئ نارها ولا يخبو أوارها . ولكنها تختلف فى بواعثها وأهدافها أيما اختلاف .

هناك حروب قامت - وماتزال - للسيطرة والتوسع والاستغلال ، وهناك حروب قامت - وماتزال - للتحرير وحماية الأوطان والأموال والأعراض .

هناك حروب قامت بين أصحاب العقيدة الواحدة لتغليب مذهب على آخر ، كالحروب التى قامت فى العصور الوسطى بين الطوائف المسيحية ، وكالمعارك التى تثور بين هذه الطوائف فى أيرلندا حتى الآن .

ومن ذلك أيضًا الحروب التى كانت تنشب بين الفرق والطوائف الإسلامية ، وللإسلام فى ذلك سياسته التى تقول :

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)[1] .

وهناك الحروب الاستعمارية التى شنها طغاة أوربا باسم « الصليب » للسيطرة على

---

(١) الآية ٩ سورة الحجرات

الأمة العربية مسلمين ومسيحيين .

وهناك الحروب التى شنها الاستعمار التركى باسم « الخلافة » على البلاد العربية واصطلى بنارها العرب ، المسلمون والمسيحيون على السواء .

وهناك الحروب المجنونة المدمرة التى شنها التتار والمغول وكادوا أن يقضوا بها على الحضارة الإنسانية ، والتى تشبهها إلى حد كبير الحروب النازية فى العصر الحديث .

وهناك الحروب العنصرية التى تشنها الصهيونية على العرب ، فهى بالغدر والتواطؤ والتآمر مع الاستعمار تستولى على فلسطين ، وتقوم بإبادة أهلها وتشريدهم واغتصاب أرضهم وديارهم ، ثم تشن الحرب على البلاد العربية المجاورة لتفسح مجالا لهجرة الملايين من يهود العالم وتحقيق حلمها العدوانى بإقامة دولة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات !

وهناك الحروب التى تشعلها الدول الاستعمارية والإمبريالية وتشجع عليها القوى العظمى لفرض سيطرتها على الشعوب واستغلال خيراتها واتخاذها مناطق نفوذ وأسواقًا لاستهلاك السلع والأفكار .

يقابل هذه وتلك حروب لها بواعث وأهداف أخرى تختلف عن هذه البواعث والأهداف .

حروب فى سبيل الدفاع عن العقيدة ، وتحرير الأرض ، واسترداد الحق ، وحماية المستضعفين ، وتحرير الضمير الإنسانى من سيطرة الطغاة ، وإقرار العدل والأمن والسلام .

كانت هذه الحروب على الأرض العربية فى صدر الإسلام ، بين الرسول ﷺ وأصحابه وبين كفار قريش وغيرهم من المشركين العرب ، وبينهم وبين يهود الجزيرة العربية ، حتى استقرت العقيدة وتطهر المجتمع العربى من أدران الشرك وأرجاس

الجاهلية ومفاسد اليهود وغدرهم . وتحققت الحرية والأمن والعدالة والمساواة بين الناس .

ثم كانت بين الدولة الإسلامية وبين الطغاة المتجبرين فى فارس والروم ، حتى تحررت قبائل العرب المتاخمة لهم ، كما تحررت شعوب أخرى فى آسيا وإفريقيا من سيطرة هؤلاء الطغاة . ثم معارك أخرى على تعاقب العصور ضد الغزو المغولى والصليبى ، والاستعمار القديم والحديث ومعارك المقاومة والتحرير ضد الصهيونية التى تمثل أبشع صور العدوان على الأرض العربية .

وهناك حروب أخرى فى مواجهة العدوان الأجنبى فى كثير من دول العالم ، شعوب صغيرة تتحدى أعتى دول العالم بكل ما تملكه من قوى بشرية وموارد اقتصادية وأسلحة حديثة ، وأساطيل تعربد فى المحيطات والبحار ، وطائرات تصب الموت والدمار ليل نهار . وتفرض على هذا العدو الذى يريد أن يكون جبارًا فى الأرض أن يدفع الثمن الغالى من أرواح رجاله وحطام طائراته .

هنا وهناك ، على امتداد التاريخ ، وعلى اتساع رقعة العالم ، قامت – وماتزال – تقوم حروب . ولكنها حروب تختلف فى البواعث والأهداف . وسيظل هذا الاختلاف ما بقيت شريعة الحرب فى الحياة ، بل ما بقيت على هذه الأرض حياة . . .

٢٧

حتمية الجهاد

ومن هنا تتقرر حتمية الجهاد . .

لا للبغى والعدوان ، ولكن لرد البغى ودحر العدوان . .

(وَلَوْلَا دَفعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[١] .

ويقول الله – تبارك وتعالى – :

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لكُمْ ، وَعَسى أَنْ تكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لكُمْ ، واللهُ

---

(١) الآية ٢٥١ سورة البقرة .

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)[1] .

ومن هنا تبدأ مشروعية القتال فى الإسلام :

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ . وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)[2] .

وهذه الآية الكريمة تحدد فى وضوح سياسة الحرب فى الإسلام ، وتجمل هذه السياسة فى كلمات قليلة تنتظم كل ما يتصل بها من مبادئ وأهداف .

– إن مشروعية القتال تبدأ حين يقع العدوان ، ويدخل فى ذلك بالضرورة أن تكون الأمة متأهبة للقتال ، ملتزمة بالجهاد ، حتى تستطيع أن ترد العدوان حين يقع ، أو تحول بذلك دون وقوعه .

يقول الله تبارك وتعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ،

---

(١) الآية ٢١٦ سورة البقرة .

(٢) الآيات ٣٩ و ٤٠ و ٤١ سورة الحج .

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ)[1] .

– إن القتال ليس هدفه البغى والعدوان ، ولكن هدفه الدفاع عن الحرمات من أرض وعرض ومال وعقيدة ، وحماية أصحاب العقائد الدينية الأخرى كذلك من العدوان على معابدهم وشعائرهم .

– إن القتال على هذه الصورة انتصار لكلمة الله وشريعته ، وأن المؤمنين بالله الملتزمين لحدوده ، مكفول لهم النصر فيما يخوضون من معارك وحروب ، وقد يتحقق النصر للأمة وتتحقق مع النصر الشهادة لمن يصطفيهم الله لهذه المنزلة ، وهل تكون الشهادة بغير قتال ؟

– إن الغاية من القتال ، بعد الانتصار والتمكين فى الأرض ، ليس الانتقام ، ولا استرقاق الشعوب ، ولكن إقامة شعائر الدين ، وإقرار العدل والأمن والسلام .

ولقد ظل الرسول ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة ، يواجه هو وصحبه أشد ألوان الفتنة والعذاب ، دون أن يحمل سيفًا أو يأمر أصحابه بقتال .

ثلاث عشرة سنة لقى فيها من قريش ولقى أصحابه ما لا يطاق ، كان المستضعفون منهم يساومون العذاب كيًّا بالنار ، وضربًا بالحديد والأحجار ، وإلقاء على رمضاء مكة فى وقدة النهار ، وإن منهم من يدفع حياته ثمنًا لإصراره على التمسك بدينه فى مواجهة كل هذه التحديات .

ويتعرض الرسول ﷺ للسخرية والاستهزاء ، ثم للسب والإيذاء ، ويتعرض معه بنو هاشم للمقاطعة التامة ثلاث سنين يقضونها محصورين منبوذين فى شعاب مكة ، لا يكلمهم ولا يعاملهم ولا يصاهرهم أحد .

ويفر إلى الحبشة من لا يطيق صبرًا على هذه الحال ، فترسل قريش فى أثرهم

---

(١) الآية ٦٠ سورة الأنفال .

من يحاول الإيقاع بينهم وبين النجاشى . وتطلب منه أن يسلم إليهم هؤلاء المهاجرين . فيرد النجاشى وفد قريش مخذولين . ويكرم وفادة من نزل بأرضه من المسلمين .

وإن من المؤمنين من كانت له فى الجاهلية عزة وعصبية ، فكيف يطيق الصبر على مثل هذا الهوان ؟

بل إن عامة الناس فى المجتمع العربى ، كانت تحملهم الأنفة والحمية على شن الحروب وخوض المعارك لأتفه الأسباب ، فكيف بهم يقبلون هذا الضيم وهم يسامون الخسف وسوء العذاب ؟

ذلك أن المنهج الإسلامى فى تربية النفوس كان يحرص على تأصيل فضيلة الصبر واحتمال المكاره فى سبيل العقيدة ، ويعد المؤمنين بالنصر حين يحين موعده ويتحتم لقاء العدو . وفى ذلك يقول الله – تبارك وتعالى – لرسوله الكريم :

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَق ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) (١) .

وحين يشتد الأمر على المسلمين يذهب عبد الرحمن بن عوف وأصحاب له إلى الرسول ﷺ فيقولون له :

يانبى الله ، كنا فى عزة ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة .

فيجيب الرسول ﷺ :

« إنى أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم » .

وكان ﷺ يقول : لم أومر بالقتال .

---

(١) الآية ٦٠ سورة الروم .

وهذا يدل على أن الأصل فى الإسلام العفو والسلام ؛ وأن القتال لم يؤذن به إلا بعد أن استنفد الرسول ﷺ كل وسائل الإقناع والمصابرة وطوال ثلاث عشرة سنة .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية دراسة فقهية مقارنة عن سياسة الحرب فى الإسلام ، ينتهى فيها إلى ترجيح رأى جمهور الأئمة مثل مالك وابن حنبل وأبى حنيفة وغيرهم ، على ما يقول به الشافعى وبعض أصحاب ابن حنبل ، وذلك فى قتال الكفار وأهل الكتاب .

إن الجمهور يرون أن الأصل فى مشروعية القتال هو الاعتداء ، وليس الكفر أو المخالفة فى العقيدة . ويستدل ابن تيمية على ذلك بكثير من الآيات ، مثل قوله تعالى :

(وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)[1] .

ويقرر ابن تيمية بناء على ذلك أن الأصل فى علاقة المسلمين بغيرهم هو

---

(١) الآيات من ١٩٠ إلى ١٩٣ سورة البقرة .

السلم . وأن القتال لا يكون إلا فى العدوان . وفى ذلك يقول :

— إذا كان القتال لأجل الحرب ، فكل من سالم ولم يحارب لا يقاتل سواء أكان كتابيًا أم كان مشركًا .

يقول الله ، تبارك وتعالى :

(لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[1] .

ويتطرق ابن تيمية إلى بيان أن اختلاف العقيدة لا يكون سببًا فى القتال ، مستدلاً بقوله تعالى :

(لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)[2] .

ثم يقول :

« إنا لا نكره أحدًا على الإسلام ، ولو كان الكافر يقتل حتى يسلم لكان هذا أعظم الإكراه على الدين » .

يؤيد هذا موقف الرسول ﷺ من اليهود والنصارى فى جزيرة العرب . . فإنه حين قدم إلى المدينة وادع اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأمنهم على أموالهم ،

---

(١) الآيتان ٨ و ٩ سورة الممتحنة .

(٢) الآية ٢٥٦ سورة البقرة .

وظل وفيًا لعهده معهم حتى نقضوه .

وحين حضر وفد نصارى نجران إلى المدينة بعد أن دعاهم الرسول ﷺ للإسلام ، مكثوا فى ضيافته أيامًا وهم يجادلونه فى دعوته ، وظلوا مصرين على عقيدتهم ، ومع ذلك أكرمهم وسمح لهم بالصلاة فى مسجده ، ثم ودعوه وعادوا إلى بلادهم دون أن يدخلوا فى الإسلام .

وفى الفتوحات الإسلامية للشام ومصر وغيرهما ، أعطى المسلمون العهد لأهل هذه البلاد أن يظلوا على دينهم ، وكفلوا لهم حرية عبادتهم وحرمة معابدهم . . ومن دخل منهم فى الإسلام كان ذلك بمحض الرغبة والاقتناع .

بل إن الأمر ليتعدى معاملة أهل الكتاب إلى معاملة المشركين .

يقول الله ، تبارك وتعالى :

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) (١) .

هذا وإن الإسلام – حتى فى حالة القتال المشروع – لا يتعدى المقاتلين من الأعداء إلى غيرهم من الشيوخ والنساء والأطفال والمنقطعين للعبادة ، وهم الذين لا يشاركون قومهم فى القتال ، ولذلك كان من وصايا الرسول ﷺ للمقاتلين قوله :

« اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا كبيرًا فانيًا ولا منعزلا بصومعته ، ولا تحرقوا نخلا ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدموا بناء » .

---

(١) الآية ٦ سورة التوبة .

هذا إلا إذا اقتضت الضرورة الحربية ذلك وكان له ما يبرره . . فقد أمر الرسول ﷺ بقتل دريد بن الصمة فى « حنين » وكان شيخًا بلغ العشرين بعد المائة . لأنه كان يشارك قومه القتال بالمشورة والرأى .

وكذل أمر بتدمير بيوت بنى النضير وكانوا يتخذونها حصونًا للحرب « يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين » . . . بل إنه أمر بحرق مسجد الضرار ، وكان الذين بنوه يتخذونه مجتمعًا للفتنة والتآمر .

كما أمر عند حصار الطائف بقطع كروم ثقيف . . على أن الغالب فى مثل ذلك هو قطع الثمار وليس الأشجار .

(مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ) [1] .

لأن المقصود هو حرمان العدو من الثمار وهى بعض مصادر قوته فى الحرب ، وليس القضاء على النخيل والأشجار وهى من مصادر الرزق فى سائر الأوقات .

والإسلام لم يكن يستهدف فى حروبه على مشارف الجزيرة العربية وفيما وراءها ، إلا القضاء على الطغاة المتجبرين من ملوك الفرس وقياصرة الروم ، وتحرير ما تحت أيديهم من الشعوب ، ولهذا كان القتال مقصورًا على الجيوش المتحاربة دون التعرض لعامة الناس بأى سوء . ومن أجل ذلك كانت هذه الشعوب تعين الجيوش الإسلامية على حكوماتها الباغية ، وتمهد لها أسباب النصر ليتحقق لها هدف التحرير وحماية العقيدة وإرساء دعائم الأمن والسلام .

وكان ﷺ إذا خرج للقتال يتوجه إلى الله بهذا الدعاء :

---

(١) الآية ٥ سورة الحشر .

اللهم أنا عبدك . وهم عبادك . نواصينا ونواصيهم بيدك . اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم » .

إن الصورة التى يتمثلها الرسول ﷺ فى مواجهة هؤلاء الأعداء – المعتدين – هى أنهم مثله عباد الله .

إنه يستشعر فى موقفه هذا الأخوة الإنسانية التى تجمعه بهؤلاء الأعداء ويحتكم فى أمرهم إلى الله بعد أن اضطروه لقتالهم . فيسأله النصر عليهم لتنتصر كلمة الله . ومثل هذه الحرب لا يمكن أن تكون حربًا باغية . ولا يمكن أن تنقلت فيها الأحقاد شفاء لما فى الصدور . ولكنه جهاد خالص باسم الله وفى سبيل الله . . .

ويذهب الرسول ﷺ فى سياسة الحرب إلى أبعد من ذلك . إنه لم يكن أحب إليه من تأليف القلوب وحقن الدماء . ولهذا كان يقول لجيوشه :

« تألفوا الناس . وتأنوا بهم . ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم « إلى الإسلام » فما على الأرض من أهل مدر ووبر – إلا أن تأتونى بهم مسلمين – أحب إلى من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم » .

وكان من وصاياه ﷺ قوله :

« لا تقاتلوهم حتى تدعوهم ، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدأوكم ، فإن بدأوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم ذلك القتيل وقولوا لهم : هل إلى خير من هذا سبيل ؟ فلئن يهدى الله على يديك رجلا واحدًا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت » .

وكذلك كان الخلفاء الراشدون فى حروبهم وفى وصاياهم للجيوش . كانوا يأخذون على أيدى القواد الذين يسرفون فى قتل الأعداء . ولقد عزل عمر ابن الخطاب القائد المنتصر خالد بن الوليد وكان يقول : إن فى سيف خالد لَرَهقًا ، أى إرهاقًا وشدة ، بكثرة ما يقتل من الأعداء . ويمتدح عمرو بن العاص فى فتح

مصر بقوله : تعجبنى حرب ابن العاص . إنها حرب رفيقة سهلة .

على أن ذلك لا يعنى أن سياسة الحرب فى الإسلام تقوم على هذا الوجه وحده ، سياسة هينة لينة رفيقة بغير حدود ولا قيود ، ذلك لأن الحرب هى الحرب بشدتها وبأسها ، والعدو هو العدو بضراوته وبغيه وعدوانه ، وإنما كانت هذه الوصايا ضوابط لنوازع الحرب حتى لا تكون حربًا باغية . أما الوجه الآخر لسياسة الحرب فى الإسلام ، فهو الصدق عند اللقاء وأخذ العدو أخذًا شديدًا .

يقول الله ، تبارك وتعالى :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَاعلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (١) .

(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) (٢) .

والإسلام يستجيب للدعوة إلى السلام حقنًا للدماء .

يقول الله - تبارك وتعالى - :

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّل عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (٣) .

---

(١) الآية ١٢٣ سورة التوبة .

(٢) الآية ٤ سورة محمد .

(٣) الآية ٦١ سورة الأنفال .

وقد تكون الدعوة إلى السلم خدعة من العدو ، ومع ذلك فإن سياسة الإسلام فى الحرب تقضى بالاستجابة حتى فى هذه الحالة ، مع أخذ الحيطة والحذر والإيمان بنصر الله .

وفى ذلك تقول الآية التى بعدها :

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ)[1] .

---

(١) الآية ٦٢ سورة الأنفال .

٢٨

الجهاد فريضة دينية وواجب اجتماعى

والقتال فى الإسلام فريضة دينية وواجب اجتماعى فى وقت معًا ، لأنه يقوم على دفع الظلم ومحاربة الفساد وحماية الحرمات وإقرار الحقوق ، والتكافل فى تحقيق ذلك بين جميع القادرين من أبناء الأمة على أداء هذه الفريضة .

(وَمَالَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ والْوِلْدَانِ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَّنَا مِنْ لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا)[1] .

---

(١) الآية ٧٥ سورة النساء .

ويقول تبارك وتعالى :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)[1] .

والإسلام لا يعرف فى القتال من يسمون فى هذا العصر بالمرتزقة . إن كل مقاتل يعد نفسه للجهاد فيخرج بسلاحه وزاده وراحلته ، وإن المقاتلين الموسرين يمدون إخوانهم بالمال والسلاح والرواحل . هذا قبل أن تتكفل الدولة بتدبير موارد الحرب والإنفاق على كتائب الجهاد ، ومع ذلك ظل الباب مفتوحًا لإسهام القادرين بالتبرع بالمال لدعم هذه الموارد .

إن المقاتل ليَخرج للجهاد ولا هدف له إلا النصر أو الشهادة ، مؤمنًا بقوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[2] .

وكذلك كان ميزان الصدق فى الجهاد ، أن تكون الغاية من القتال هى ابتغاء وجه الله ، لا الفخر ولا الغنيمة .

---

(١) الآية ٥ سورة القصص .

(٢) الآية ١١١ سورة التوبة .

قال رجل للرسول ﷺ : يانبى الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟

قال ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

وجاء أعرابى إلى الرسول ﷺ فآمن به ثم قال : أهاجر معك ، ثم كانت غزوة غنم الرسول فيها بعض الغنيمة فقسمها على أصحابه وأعطى منها هذا الأعرابى نصيبه . ودهش الأعرابى وقال : ما هذا ؟ قال الرسول هذا : نصيبك .

فقال الأعرابى : ما على هذا اتبعتك ، ولكنى اتبعتك على أن أُرمى فى حلقى بسهم فأموت فأدخل الجنة .

وصدق الأعرابى فيما قال ، فمازال يقاتل حتى أدرك منيته بالشهادة فى سبيل الله .

لم يكن الجهاد إذن مقصوراً على فريق يحترف الحرب والقتال ، ولكنها تعبئة عامة لكل قادر ، ولكل مسلم ومسلمة مكانه فى المعركة ، ولا يعفى من حمل السلاح إلا الشيوخ والنساء والأطفال وأولو الضرر من المرضى وذوى العاهات .

ومع ذلك فإن عقيدة الجهاد ملأت قلوب المؤمنين الذين فرض عليهم القتال ، كما ملأت قلوب الذين أعفاهم الإسلام من حمل أعبائه على السواء .

هذه أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، شهدت يوم أحد مع زوجها وابنيها ، كانت فى أول النهار تسقى الجرحى والمسلمون منتصرون ، فلما دارت الدائرة عليهم ألقت السقاء وحملت السيف تقاتل ، وحين انكشف الرسول ﷺ للعدو وهاجمه عمرو بن قميئة وقفت نسيبة تدافع عنه ، فتوجه إلى ابن قميئة ضربات بسيفها فتوقع درعين كانتا عليه ، وتتلقى منه ضربة بالسيف تصيبها على عاتقها بجرح عظيم ، وهى ثابتة فى مكانها لا تبرحه مع من ثبت إلى جانب رسول الله من الرجال !

وقاتلت نسيبة يوم اليمامة ، فقطعت يدها وهى تحاول قتل مسيلمة ، ولم تزل تقاتل حتى رأت مسيلمة مقتولا فسجدت شكرًا لله .

وهؤلاء صبية لم يبلغوا الحلم ينضمون إلى المقاتلين فى غزوة أحد ، وحين يستعرض الرسول ﷺ جنوده يخرج هؤلاء الصبية من بين الصفوف ، وإن منهم من يثب على قدميه ليبدو أكبر من سنه .

وكان من هؤلاء رافع بن خديج ، قيل للرسول ﷺ إنه يحسن الرمى فأجازه ، ومنهم سمرة بن جندب . . قيل : يارسول الله ، لقد أجزت رافعًا ، وإن سمرة يصرعه . . فأجاز سمرة كذلك وضمهما للمقاتلين وكلاهما فى الخامسة عشرة من عمره .

وفى هذه الغزوة رد الرسول ﷺ أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ابن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ، وعمرو بن حزم ، وأسيد ابن ظهير ، ثم أجازهم يوم الخندق وهم أبناء خمس عشرة سنة .

وهذا عمرو بن الجموح ، وهو أعرج شديد العرج ، أراد الخروج مع أولاده الأربعة فى غزوة أحد ، فأبوا عليه ذلك لكبر سنه وعاهته ، وقالوا له : نحن نكفيك وقد رفع الله عنك الحرج . . فذهب إلى رسول الله ﷺ يشكو أولاده ، فقال له الرسول ﷺ : إن الله قد وضع عنك الجهاد . .

فقال عمرو : يارسول الله ، لا تحرمنى الجنة فإنى أريد أن أدخلها فأطأ فيها بعرجى .

فقال الرسول ﷺ لأبناء الرجل :

وما عليكم أن تتركوه فلعل الله أن يرزقه الشهادة ؟

وقاتل عمرو بن الجموح فى سبيل الله حتى استشهد .

وفى عمومية فرض الجهاد على المسلمين عند التعبئة العامة ، يقول الله ، تبارك وتعالى :

(انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً) .

أى شيوخًا وشبانًا ، أقوياء وضعفاء ، أغنياء وفقراء ، مشاغيل وغير مشاغيل ، فى المنشط والمكره ، فى الشدة والرخاء .

وفى إحدى الغزوات التى انتدب لها المسلمون على عهد عثمان بن عفان ، قرأ أبو طلحة الأنصارى وهو شيخ مسن هذه الآية ، ثم قال لأبنائه : لم يبق لأحد عذر ، أرى ربنا استنفرنا شيوخًا وشبانًا . وطلب منهم أن يجهزوه للحرب .

قالوا له : يرحمك الله ، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك .

فأبى أبو طلحة إلا الخروج مع المقاتلين ، وركب البحر غازيًا فى سبيل الله ، حتى استشهد .

وقد نعى الله – تبارك وتعالى – على المخلفين تقاعدهم عن الجهاد ، وأنزل فى غزوة « العسرة » آيات تدمغهم وتفضح ما اعتذروا به من أسباب فقال :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ، أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) [1] .

---

(١) الآيتان ٣٨ و ٣٩ سورة التوبة .

(انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (١) .

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ، وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) (٢) .

وهؤلاء هم المنافقون الذين كره الله خروجهم فصرف قلوبهم عن ذلك حتى لا يكونوا وبالا على المجاهدين ، يبثون فى صفوفهم الفتنة بالشائعات والأراجيف وتهويل أمر العدو عليهم وإثارة البلبلة والخلاف فيما بينهم .

ويقول الله – تبارك وتعالى – فى شأن هؤلاء المتخلفين :

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ . قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (٣) .

---

(١) الآيتان ٤١ و ٤٢ سورة التوبة .
(٢) الآيتان ٤٦ و ٤٧ سورة التوبة .
(٣) الآيتان ٥٠ و ٥١ سورة التوبة .

نغمة قديمة جديدة، رددها المنافقون المتخلفون فى عهد الرسول ﷺ ومازالت أصداؤها تتردد حتى الآن بين بعض الضعفاء والمنافقين.

إن تطهير الصفوف من أمثال هؤلاء يكفل المنعة والقوة للمجاهدين ، وكشف نفاقهم والتصدى لما يرجفون به واجب على المواطنين لحماية جبهات القتال والجبهات الداخلية من عوامل التصدع والخذلان.

* * *

ومن المخلفين ثلاثة كان لهم شأن آخر.

هذا كعب بن مالك من المؤمنين الصادقين ، ما تخلف عن غزوة قط فى سبيل الله ، ولكنه فى هذه الغزوة – غزوة تبوك – كانت تراوده نفسه إيثارًا للراحة وتجنبًا للمشقة ، فَيَهُمُّ بالانضمام للجيش ثم يتردد فيقعد مع القاعدين.

وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة ، وأقبل المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا . فقبل الرسول اعتذاهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله.

وجاء كعب بن مالك يتعثر فى خطواته فقال : يارسول الله ، والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك.

فقال الرسول ﷺ أما هذا فقد صدق.

ثم قال لكعب : قم حتى يقضى الله فيك.

وكذلك فعل الرسول ﷺ مع مرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفى . وأمر بأن يتجنب الناس هؤلاء الثلاثة المخلفين حتى يقضى الله فى أمرهم . . . فعانوا من مقاطعة الناس قريبهم وبعيدهم ما عانوا.

قال كعب بن مالك : فلما مضت أربعون ليلة على هذه الحال ، إذا برسول يأتينى فيقول : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك.

فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟

قال : بل اعتزلها ولا تقربها .

فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

وكذلك فعل الرسول ﷺ مع مرارة وهلال .

حتى إذا انقضت خمسون ليلة جاء من يبشر الثلاثة بالفرج . . .

فقد تاب الله عليهم وأنزل فيهم قرآنه :

(لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)[1] .

* * *

(١) الآيتان ١١٧ و ١١٨ سورة التوبة .

٢٩

ويتخذ منكم شهداء

وفى غزوة أحد التى سقط فيها كثير من الشهداء ، وتعرض الرسول ﷺ لسهام العدو وسيوفهم نزلت آيات كثيرة تجمع من صور الجهاد والاستشهاد ما يتصل بمختلف المواقف :

• التحريض على الجهاد والصبر وعدم الاستسلام للهزيمة واليأس :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

• الإشارة إلى طبيعة الحرب ، وما ينال المجاهد – وعدوه مثله – من شدة وبأس وتعرض للقتل والجراح ، والتراوح بين الهزيمة والنصر ، وفى ذلك إظهار لإيمان المؤمنين وسبيل لبلوغ شهادة الشهداء :

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مثله ، وَتِلْكَ

الْأَيَّامِ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) .

• ذلك لأن فى الجهاد امتحانًا لقلوب المؤمنين ومبلغ ثباتهم ، وهلاكًا للطغاة الذينَ يكفرون بالله ويتعدون حدوده ، وتأكيد أن الجنة تحت ظلال السيوف ، لا يدخلها إلا المجاهدون الصابرون :

(وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) .

• وعاتب الله – تعالى – المنهزمين الذين لم يثبتوا على شدة الجهاد وضراوة القتال ، وقد كانوا من قبل يتمنون ملاقاة العدو ويطلبون الشهادة فى سبيل الله ، فلما دارت الدائرة على المسلمين ، وأرجف المرجفون بأن محمدًا قد مات . . انقلبوا على أعقابهم يلتمسون النجاة من الموت . وما كانت الشهادة انتقاصًا لعمر الإنسان المحدود ، ولا ابتدارًا لأجله قبل موعده المقدور :

(وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) .

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ) .

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ) .

• وأشاد بمواقف من صدقوا من الربانيين المجاهدين مع أنبيائهم فى مواطن القتال ومواقف البأس والشدة ، فكان جزاؤهم النصر على عدوهم أو الشهادة التى بلغوا بها أعلى المراتب فى الآخرة :

(وَكَأَيِّن مِّنْ نَبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (١) .

* * *

وما من إنسان يموت وهو يعلم مقامه بعد الموت إلا الشهيد . إن كل إنسان تتنازعه السيئات والحسنات ، فهو من أخراه على وجل وإشفاق لا يدرى هل تثقل أم تخف موازينه هناك ، أما الشهيد فقد أخذ من الله عهداً لن يخلفه ، ومن أوفى بعهده من الله . فهو يعرف مقامه من الجنة ، وإنه لفى حياة متصلة محفوفة بالكرامة والرزق الكريم .

---

(١) الآيات من ١٤٦ إلى ١٤٨ سورة آل عمران .

يقول الله تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (١) .

وقال ﷺ :

« ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ؛ يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة » .

ولقد تمكنت هذه العقيدة فى النفوس المؤمنة ، فكانوا يتسابقون إلى ميدان القتال يحملون أرواحهم على أكفهم ، ولا هم لهم إلا تحقيق النصر أو إدراك الشهادة . ومن الأمثلة التى يزخر بها تاريخ الصدر الأول فى الإسلام ، والتى ما زالت تلهم القلوب بروافد غزيرة من القوة والتضحية والفداء ؛ قصة عمير ابن الحمام الأنصارى فى غزوة بدر ، حين نادى الرسول ﷺ فى أصحابه يحرضهم على القتال : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض . . . فينطلق الأبطال يتسابقون فى خوض المعركة ، ويسارعون إلى أبواب الجنة يطرقونها بسيوفهم وأرواحهم .

ويقول عمير بن الحمام الأنصارى :

– يارسول الله . . . جنة عرضها السموات والأرض ؟

قال : نعم .

---

(١) الآيتان ١٦٩ و ١٧٠ سورة آل عمران .

وكان فى يد عمير تمرات يأكل منها ، فخاطب نفسه قائلا : إذن ، ليس بينى وبين الجنة إلا هذه التمرات ، ولئن حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة . . .

ورمى عمير التمرات من يده ، ثم اندفع يقاتل ويضرب فى العدو حتى استشهد . وانطبعت على شفتى الشهيد بسمة راضية مطمئنة وانعكست فى ناظريه أنوار الجنة .

وكان ممن قاتل فى غزوة بدر حتى استشهد ، حارثة بن سراقة ، فجاءت أمه إلى الرسول ﷺ فقالت له :

يارسول الله ، ألا تحدثنى عن حارثة . . فإن كان فى الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء .

فقال لها الرسول ﷺ :

« ياأم حارثة ، إنها جنان فى الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى .

فانفرجت أسارير الأم المؤمنة الصابرة ، وحمدت الله على ما بلغه ابنها من الكرامة .

والشهادة لا تقتصر على الموت فى ميادين القتال ، ولكنها متاحة لكل مسلم حيثما كان مكانه وإمكانه حين يتعرض للعدوان على دينه ووطنه وأهله . فهو مطالب عند ذلك بألا يذل ويستسلم ، بل يتصدى للعدو بكل ما أوتى من قوة ، يقاتله بكل قوة وبكل سلاح ، ويقاومه حتى آخر رمق فى حياته ، فإن غلبه العدو على أمره وسقط صريعًا فى المعركة فقد ظفر بالشهادة وكان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء .

« من قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

وهذا الحديث يوحى بأكثر من معنى فى هذا المقام . . إنه يدعو كل مسلم لكى يعد نفسه لأن يكون أهلا للجهاد فى سبيل حماية دينه ووطنه وأمته ؛ مستعداً للدفاع عن مقدساته وحرماته . وهذا يتطلب منه أن يأخذ بأسباب القوة المادية والنفسية ؛ وأن يحتفظ على الدوام بلياقته البدنية ، بممارسة فنون الرياضة النافعة ، وفى مقدمتها أساليب الدفاع عن النفس ، والبعد عن كل ما يفسد الجسم والعقل ، والتمسك بالمبادئ والقيم التى تزوده بطاقات العزة والحمية وأسباب القوة والغلبة والانتصار . فإذا أخذ كل فرد فى الأمة نفسه بهذا الإعداد البدنى والنفسى ، كانت الأمة كلها مجندة فى معركة الحياة ، فإذا ما تعرض الفرد للظلم لم يذل ولم يخنع ، بل يدافع عن حقه حتى ينتصر أو يموت دونه ؛ وإذا ما تعرضت الأمة للعدوان كانت قواتها المسلحة قادرة على سحق العدو ومن ورائها جماهير الأمة تقف للعدو بالمرصاد ، وتنتظر دورها فى المعارك حيثما دارت رحاها فى أى مكان ؛ وقد أعد كل فرد فيها نفسه للقاء العدو يقاتله وينازله بكل سلاح ، حتى يفتدى وطنه وأمته ، ويحمى أرضه وعرضه ؛ أو يظفر بالشهادة فى سبيل الله .

٣٠

جهاد فى كل مكان

والجهاد فى الإسلام لا يقتصر على القتال فى ميدان المعركة فحسب ، ولكنه يمتد فيشمل دائرة المجتمع كله ، ولهذا كانت سياسة الحرب فى الإسلام تقوم على إعداد الأمة كلها لحمل أعبائه ، باعتبار الحرب فريضة دينية ووظيفة اجتماعية لتأمين الدعوة وحماية المجتمع والدفاع عن حقوقه وحرماته ، يشترك فيها كل فرد حسبما تحدده إمكانياته وترسمه القيادة العامة فى تخطيطها للحرب .

إن منهم من يبقى لرعاية النساء والأطفال ، وله أجر المجاهد ونصيبه فى الغنيمة ، كما فعل الرسول ﷺ حين عهد بذلك إلى عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وحسان بن ثابت فى بعض الغزوات .

ويقول الرسول ﷺ « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيًا فى أهله بخير فقد غزا » .

إن كل من يشترك فى الإنتاج الحربى ، صناعة أو تجارة أو زراعة ، أو فى التعبئة للحرب بالإعداد والتدريب والتبرع بالدم والمال ، كل أولئك لهم فضل المشاركة فى الغزو وشرف الجهاد .

ويقول الرسول ﷺ : « إن الله ليجزى بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة . . صانعه ونابله ، والرامى به » .

وإن رعاية أسر المجاهدين والقيام بشئونهم لا يقل فى الميزان عن القتال فى الميدان .

ولقد كان عمر بن الخطاب يقول للمجاهدين وهم متوجهون للحرب : أنا أبو العيال حتى ترجعوا .

والمرابطة على الثغور ، وحراسة المرافق العامة ، من الجهاد فى سبيل الله .

قال الرسول ﷺ :

« رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه » .

« حرس ليلة فى سبيل الله ، أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها » .

« عينان لا تمسها النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » .

والتحريض على القتال ، والتصدى للشائعات ، والجهاد بالكلمة من أسلحة الحرب . ولقد كان الرسول ﷺ يقول لحسان بن ثابت :

« والله إن شعرك لأشد عليهم من وقع الحسام فى غبش الظلام » .

وفى غزوة الأحزاب كان لموقف نعيم بن مسعود أثر قوى فى تصديع جبهة العدو وحملهم على الانسحاب ، بعد أن اجتمعت قريش وكثير من القبائل العربية واليهود على غزو المدينة والقضاء على محمد - ﷺ - ودعوته .

وترجع غزوة الأحزاب إلى مؤامرة يهودية بدأ بها فريق من زعماء بنى النضير

وبنى وائل ، حيث قدموا مكة وحرضوا قريشًا وغطفان على قتال الرسول ﷺ وقالوا : إننا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

ووجدت قريش وغيرهم فى دعوة اليهود وتحالفهم معهم على حرب محمد ﷺ فرصة تغتنم ، فنشطوا لذلك وأعدوا للأمر عدته ، ثم خرجوا فى عشرة آلاف مقاتل .

وعلم الرسول ﷺ وصحبه بالأمر ، وتداولوا ماذا هم فاعلون لملاقاة هذا العسكر الكثيف الذى يكاد يطوقهم من كل جانب .

وقال بعضهم : لا سبيل لملاقاة العدو ، ولا مناص من التحصن داخل المدينة . . . وأشار عليهم سلمان الفارسى بحفر الخندق . وحين أقبلت الأحزاب ورأت الخندق يحصن المدينة أسقط فى أيديهم ، وهنا فكر حيى بن أخطب زعيم بنى النضير فى حيلة يقضى بها على استحكامات الدفاع التى فاجأ بها المسلمون الأحزاب .

وتسلل حيى بن أخطب إلى المدينة حتى أتى يهود بنى قريظة ، وكان بينهم وبين الرسول ﷺ عهد وموادعة ، وقصد إلى زعيمهم كعب بن أسد يقول له : جئتك بعز الدهر ، وببحر طام ، جئتك بقريش وغطفان على قادتها وسادتها ، قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه .

فتردد كعب وقال له : إنى قد عاهدت محمدًا فلست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقًا .

فلم يزل به يحاوره ويزين له حتى أقنعه بنقض العهد والانضمام بقومه إلى الأحزاب ، وكانت طعنة غادرة فى ظهور المسلمين ، وتمت حلقة المؤامرة التى زلزلت القلوب والأقدام .

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ

الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا)[1] .

وظلت الأحزاب تحاصر المسلمين بضعاً وعشرين ليلة ، والمسلمون يرابطون فى مواقعهم ليس بينهم وبين المشركين إلا الرمى بالنبال والمبارزة بين الأقران . وحين اقتحم بعض فرسانهم الخندق تصدى لهم على بن أبى طالب فى جماعة من المسلمين ، فردوهم على أعقابهم ، بعد أن قتل على بن أبى طالب ، وهو يومئذ فتى قد جاوز العشرين بقليل ، عمرو بن عبد ود أحد أبطالهم الكبار .

ولكن المعركة لم تنته بعد ، فقد طالت أيام الحصار ، واستمرت المناوشات ، واشتد على الناس البلاء ، وراجت سوق المنافقين حتى قال بعضهم : كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط !

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)[2] .

وهم الرسول ﷺ أن يعقد صلحاً مع غطفان ليكسر عن المسلمين شوكة عدوهم ، ويقضى على الحلف الذى جمع الأحزاب على حربه ، فأرسل يفاوض غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة إذا رجعوا عن قتاله ، وأعدوا فيما بينهم مشروع معاهدة للصلح على ذلك .

---

(١) الآيتان ١٠ و ١١ سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٢ سورة الأحزاب .

ولكن الرسول ﷺ قبل أن يبرم هذه المعاهدة استدعى زعيمى الأنصار سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة يستشيرهما . . فقالا له :

– يارسول الله ، أمرًا تحبه فتصنعه ، أم أمرًا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئًا تصنعه لنا ؟

قال : بل شيء أصنعه لكم . . . والله ما أصنع ذلك إلا أنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، واشتدوا عليكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال سعد بن معاذ :

يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى « ما يقدم للضيف » أو بيعًا . أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا . . . والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فأقره الرسول ﷺ على ما قال .

إنه الصمود والمقاومة حتى النصر .

ونعود إلى نعيم بن مسعود ، فقد أسلم دون أن يعلم به قومه من غطفان وجاء إلى الرسول ﷺ فقال :

يارسول الله ، إنى قد أسلمت ، وإن قومى لا يعلمون بإسلامى ، فمرنى بما شئت .

قال : خَذِّلْ عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود وقد رسم خطته لتخذيل العدو ، وهو مما يعرف الآن بالحرب النفسية ، وبدأ ببنى قريظة ، وكان لهم نديمًا فى الجاهلية ، فقال : يابنى قريظة ، قد عرفتم ودى إياكم ، وخاصة ما بينى وبينكم .

قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتهم .

قال : إن قريشًا وغطفان ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم : فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره . وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، وإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ، ولا طاقة لكم به . . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تقضوا عليه .

فقالوا له : لقد أشرت بالرأى .

ثم توجه نعيم إلى قريش ، وإلى غطفان . . فقال لهم : إن اليهود ندموا على الغدر بمحمد ، فراسلوه فى الرجوع إليه ، فراسلهم بأنا لا نرضى حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رجالا رهنًا فأتتهم .

فلما أصبح أبو سفيان أرسل عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان إلى بنى قريظة يقول لهم :

إنا قد ضاق بنا المنزل ، ولم نجد مرعى ، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ مما بيننا وبينه .

فأجابوا : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رهنًا من رجالكم ، فإنا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن تعودوا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل فى بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه .

وقالت قريش وغطفان : والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق .

وبعثوا إلى بنى قريظة يقولون : إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدًا من

رجالنا . فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

وقالت بنو قريظة بعضهم لبعض : إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق .

ووقع الخذلان فى صفوف الأحزاب ، فاشتد عقدتهم ، وتراخت قبضتهم عن المسلمين ولم يلبثوا أن جاءت عليهم عاصفة اقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم .

وقال أبو سفيان : يامعشر قريش ، والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، الدواب والإبل ، وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل .

وفى غزوة الأحزاب هذه تتمثل عدة جوانب من سياسة الحرب فى الإسلام ، لأنها جمعت فى عداوة الرسول ﷺ أطرافاً كثيرة ، منهم قريش وقبائل أخرى من العرب وهم أعداء محاربون ، ومنهم اليهود وهم معاهدون ، ومنهم المنافقون من المسلمين . وكان للرسول مع كل من هؤلاء الذين اشتركوا فى حربه موقف وحساب .

تمثل مبدأ « الموادعة » ومصالحة يهود المدينة على أثر الهجرة ، حتى يأمن المسلمون شرهم ويعيش الجميع فى أمن وسلام ، وحتى تتهيأ للمسلمين فى دار هجرتهم أسباب الاستقرار والقوة ، وكانت تلك من سياسة الإسلام فى علاقاته بالعرب المشركين وبأهل الكتاب وغيرهم من البلاد المجاورة . تمثل ذلك فى معاهدة الحديبية مع قريش ، وفى موادعة يهود المدينة وبعض القبائل العربية ، وفى رسائل الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء ، وفى عهود الخلفاء وموادعتهم إلى الشعوب التى امتدت إليها دعوة الإسلام .

وإذا كان بنو قريظة قد خانوا العهد ، وغدروا بمحمد ﷺ ، وذلك بانضمامهم إلى الأحزاب فى حربه ، بدلا من أن ينضموا إليه فى حرب الأحزاب ، برغم اعترافهم بأنهم لم يروا منه إلا وفاء وصدقاً .

إذا كان بنو قريظة قد فعلوا ذلك ، فإن عليهم وزر ما فعلوا ، وقد نالوا جزاء خيانتهم وغدرهم . فقد خرج إليهم الرسول ﷺ فور عودته من غزوة الأحزاب ، وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حصاراً شديداً حتى أجهدهم ، فطلبوا أن يحكم فيهم حليفهم ومولاهم سعد بن معاذ . فقال سعد : فإنى أحكم أن يقتل الرجال وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .

فقال الرسول ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .

ومن المبادئ التى تقررت فى غزوة الأحزاب وفى غيرها من الغزوات الأخذ بمشورة أهل الرأى والخبرة . وقد كان حفر الخندق خطة جديدة لا عهد للعرب بها من قبل ، وأشار عليهم بذلك سلمان الفارسى فكانت من أسباب النصر .

ومن هذه المبادئ والخطط عدم الخروج لملاقاة العدو والتحصن بالمدينة ، فذلك فى مواجهة الأحزاب المهاجمين يعطى المسلمين ميزة التفوق على عدوهم بأيسر جهد وأقل نفقة ، ويكلف العدو أعباء الاستنزاف والتعرض لعوامل الطبيعة التى تمثلت فى الرياح العاصفة والأمطار الشديدة ، كما هلكت الخيل والإبل لقلة المرعى وبعد مصادر التموين .

وإذا كان الإسلام فى مثل هذه الحالة لا يحض على المسارعة إلى لقاء العدو ، أو هو يقرر ذلك بصفة عامة ، كما جاء فى قول الرسول ﷺ : « لا تتمنوا لقاء العدو . . » . فإن بقية الحديث النبوى تحدد واجبات المسلمين إذا تحتم هذا اللقاء ، فيقول :

« . . . وإذا لقيتم فاثبتوا » .

وفى الثبات عند لقاء العدو وتحريم الفرار آيات كثيرة ، يقول الله تبارك وتعالى :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1] .

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[2] .

لا انسحاب من وجه العدو فرارًا من لقائه ، ولكن تنفيذًا لخطة قتالية يعود بها الكر بعد الفر ، والاقتحام بعد الإحجام ، وتتحقق بها الغلبة والانتصار .

ومن سياسة الحرب التى تمثلت فى هذه الغزوة كذلك « تخذيل » العدو . وهى المهمة التى كلف القيام بها نعيم بن مسعود ، والتى أدت إلى بث الفرقة وإثارة سوء الظن بين الأحزاب ، حتى انحلت عقدتهم وتفرقت كلمتهم وتحطمت جبهتهم وانصرف كل منهم يرجو لنفسه النجاة .

• • •

ومن سياسة الحرب فى الإسلام ، الرجوع إلى الشعب فى شخص ممثليه قبل اتخاذ قرار خطير فى شأن الحرب أو السلام .

أما فى شأن الحرب فنعود قليلا إلى غزوة بدر ، حين استنفر الرسول ﷺ أصحابه من المهاجرين والأنصار لمصادرة قافلة لقريش كانت فى طريقها من الشام إلى مكة ، تحمل تجارة يقدر ثمنها بخمسين ألف دينار .

إن قريشًا قد صادرت أموال المهاجرين من مكة ، ومازالت تمعن فى تعذيب

---

(١) الآية ٤٥ سورة الأنفال .

(٢) الآيتان ١٥ و ١٦ سورة الأنفال .

المسلمين الذين لم يستطيعوا الهجرة . فكان لابد من معاملتهم بالمثل ؛ حتى يرتدعوا وتخف وطأتهم على المستضعفين من المسلمين .

وكان على القافلة أبو سفيان وأربعون رجلا ، فما إن علم قبل وصولهم إلى المدينة بخروج المسلمين للقائهم ، حتى بعث رجلا يستنفر أهل مكة لحماية تجارتهم ، فتداعى الناس من كل مكان حتى لم يبق فى مكة قادر على القتال إلا حمل سلاحه ، وانطلقوا يقودهم أبو جهل لملاقاة محمد وأصحابه . .

وتحول ميزان الموقف . . إن محمداً ﷺ وأصحابه خرجوا يتعرضون لتجارة قريش وهم بضعة عشر وثلاثمائة ، وقد أمدت قريش أبا سفيان بألف مقاتل ، واستشار محمد ﷺ أصحابه .

فقال المقداد بن عمرو ، وهو من المهاجرين : يارسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك . . والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ولكن الرسول ﷺ لا يريد رأى المهاجرين وحدهم ، إنه يريد رأى الأنصار . ذلك أن المعاهدة التى عقدت بينه وبينهم ليلة « العقبة » التزموا فيها بالدفاع عن الرسول ﷺ وحمايته وهو بينهم بالمدينة . إما أن يخرج إلى « بدر » أو غيرها لقتال قريش فذلك ما لم تتضمنه البيعة أو يؤخذ عليه العهد .

ولهذا حرص الرسول ﷺ على أن يسمع رأى الأنصار فى لقاء قريش . ولم يكتف بما أجاب به المقداد بن عمر ، فأعاد السؤال وهو يقول : أشيروا على أيها الناس .

فالتفت سعد بن معاذ زعيم الأنصار إلى الرسول ﷺ يقول : لكأنك تريدنا يارسول الله ؟

قال : أجل .

قال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، إنا لَصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك . فسر على بركة الله .

وبذلك حسم ما قاله المقداد بن عمرو وسعد بن معاذ ، الموقف فى وجه من أراد أن يتعلل بأنهم إنما خرجوا لمصادرة التجارة وعليها أربعون رجلا ، لا لقتال قريش وقد وجهت إليهم ألف مقاتل .

وكانت غزوة بدر الكبرى انتصارًا رائعًا فى أول جولة بين المسلمين والمشركين ، برغم عدم التكافؤ بينهما فى العدة والعدد .

ونعود إلى غزوة الخندق ، لنشهد صورة قريبة من الشورى والرجوع إلى ممثلى الشعب قبل توقيع اتفاقية سلام بين الرسول ﷺ وفريق من الأحزاب .

وذلك حين أجهد الحصار المسلمين ، واشتدت ضراوة العرب واليهود فى التآمر عليهم والغدر بهم ومحاولة القضاء عليهم ، فأراد الرسول ﷺ أن يرفع عن المسلمين هذا البلاء بمصالحة « غطفان » على أن يرجعوا عنه ولهم ثلث ثمار المدينة .

وقبلت غطفان المصالحة ، ولم يبق إلا توقيع المعاهدة .

وهنا رجع الرسول ﷺ إلى أصحاب الحق الأول ، فعرض الأمر على الأنصار فكان جوابهم ما قاله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة . ونزل الرسول ﷺ على رأى الأنصار .

(وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) (١) .

---

(١) الآية ٢٥ سورة الأحزاب .

٣١

من أخلاقيات الحرب

والإسلام يقيد الحرب ورد العدوان بالعدل والتقوى .

يقول الله تبارك وتعالى :

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[١] .

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)[٢] .

والتقوى هى التزام حدود الله فلا بغى ولا إسراف . ورعاية حرمة الدماء

---

(١) الآية ١٩٠ سورة البقرة .

(٢) الآية ١٩٤ سورة البقرة .

والأعراض والكرامة الإنسانية . فلا اغتيال بغير موجبة . ولا تمثيل بجثة قتيل . ولا إهدار لدم أسير . وعدم المعاملة بالمثل فى انتهاك الحرمات . . فإذا اعتدى العدو على الأعراض فلا يكون ذلك مبررًا لانتهاك أعراضه . ولكنها الحرب الشريفة يخوضها المسلمون باسم الله . ولا يضرهم بغى عدوهم فإنما بغيه على نفسه . والله — تبارك وتعالى — حين يقول :

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

إنما يذكر بحقيقة مؤكدة وهى أن النصر من عند الله . وأن تحقيق هذا النصر لا يكون إلا على قاعدة :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)[1] .

وذلك بالجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته والتزام حدوده .

والإسلام يقرر الإنذار والمواجهة فى الحرب قبل بدء الهجوم ، ويحرم المباغتة والغدر وذلك حتى يعطى للعدو فرصة الاستعداد للقتال . فذلك قوله تعالى :

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)[2] .

وهو ينكر غزو العدو قبل تخييره إما بعقد معاهدة لمنع عدوانه ، أو باعتناق الإسلام إن أرادوا ذلك . لأن هدفه من القتال ليس مجرد الغزو والتسلط ، ولكن منع العدوان وتأمين الحدود وحماية الدعوة .

ولقد خالف قتيبة بن مسلم ذلك فى إحدى الغزوات التى امتدت حتى أوشكت

---

(١) الآية ٧ سورة محمد .

(٢) الآية ٥٨ سورة الأنفال .

أن تبيغ الصين ، دخلوا صغد ، من إقليم سمرقند ، دون أن يخير أهله — كما تقرر سياسة الإسلام فى الحرب — فشكوه إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فقضى بأن ينسحب جيش المسلمين من صغد إلى موقعه الذى كان خارجها ثم يخير أهلها بين الإسلام أو المعاهدة أو الحرب . وانسحب الجيش المنتصر لم يكرهه أحد على ذلك إلا وفاؤه هذه المبادئ الشريفة .

فماذا كان موقف أهل صغد ؟ إنهم لم يغتنموا الفرصة بمعاهدة العرب على عدم الاعتداء مع بقائهم على دينهم فحسب ، ولكنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فدخلوا فى دين الله عن طواعية واختيار ، بعد أن رأوا من مبادئ هذا الدين فى الحرب ما لا يوجد عند كثيرين غيرهم حتى فى عهود السلام .

وقد حدد عمر بن الخطاب فى وصيته إلى جيش المسلمين بقيادة سعد ابن أبى وقاص الدستور الأخلاقى للمحاربين ، والعلاقة الوثيقة بين تقوى الله والنصر على الأعداء فقال :

« أما بعد ياسعد ، فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإنها أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه ، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا وديننا لم نغلبهم بقوتنا . اعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيله ، لا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم من هم شر منهم ، كما سلط الله على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا . اسألوا الله العون على أنفسكم قبل أن تسألوه العون على أعدائكم » .

أما سياسة الحرب فى شأن الأسرى . فإن الإسلام قرر لهم حقوقًا تمثل أسمى صور العدل والعفو عند المقدرة . والتجرد من شهوة الثأر والانتقام ، ورعاية الأخوة والكرامة الإنسانية . . .

المنُّ على الأسير بإطلاق سراحه لوجه الله ، أو إطلاق سراحه مقابل فدية مالية أو مقابل أسير مسلم يطلقه العدو . . . طريقان لا ثالث لهما فى معاملة الأسرى من الأعداء ، يقول الله . تبارك تعالى :

(فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً)[1] .

فالإسلام لا يجيز قتل الأسير أو تعذيبه أو استرقاقه ، لكن بفرض حمايته ورعايته والإحسان إليه : يقول الرسول ﷺ « استوصوا بالأسارى خيرًا » .

ويقول : « لا يعترض أحدكم أسير أخيه ويقتله » .

ويقول الله تبارك وتعالى :

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ، لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)[2] .

وأسر صلاح الدين الأيوبى عددًا كبيرًا من الصليبيين ، فلما لم يجد عنده ما يكفيهم من الطعام أطلق سراحهم .

يقابل هذه الصورة عند الصليبيين أن « ريكارد » قتل صبرًا ثلاثة آلاف أسير عربى بعد أن أعطاهم الأمان .

وحين عاد الرسول ﷺ من غزوة بنى المصطلق ، كان من بين الأسرى جويرية

---

(١) الآية ٤ سورة محمد .

(٢) الآيتان ٨ و ٩ سورة الإنسان .

بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه . فلما قدم أبوها ليفديها شهد من آيات النبوة ما أقنعه بإعلان إسلامه . ثم خطب الرسول جويرية من أبيها فزوجها له . وما علم المسلمون بذلك حتى قالوا : إن أصهار رسول الله لا يُسْتَرَقُّونَ .

وأطلق المسلمون من بأيديهم من أسرى بنى المصطلق وكانوا مائة من الرجال والنساء . قالت عائشة : فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .

وفى غزوة حنين بالطائف كان عدد الأسرى من هوازن وثقيف ستة آلاف أسير . وأقبل شيخهم أبو صرد يقول :

« يارسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك .

يشير أبو صرد بذلك إلى رضاعة الرسول ﷺ فى قبيلة بنى سعد وهو طفل صغير .

فأعلن الرسول ﷺ بصوت عال :

أما ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

وما سمع المسلمون من المهاجرين والأنصار هذه الكلمة حتى قالوا جميعًا : وماكان لنا فهو لرسول الله .

وأطلقت هذه الكلمة سراح ستة آلاف أسير .

وأسلمت هوازن وثقيف !

وهناك صورة أخرى لسياسة الإسلام فى شأن الأسرى .

حين اجتاح التتار البلاد الإسلامية ، وقع فى أسرهم كثير من المسلمين وأهل الذمة من اليهود والنصارى . فلما دارت عليهم الدائرة فى معارك الشام ، ثم اعتنق ملوكهم الإسلام ، طلب شيخ الإسلام ابن تيمية من « قطلوشاه » أمير التتار أن يطلق سراح من تحت يده من الأسرى . فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح له بأهل

الذمة . فكان رد ابن تيمية على أمير التتار أن قال :

لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيرًا من المسلمين ولا من أهل الذمة .

فأطلق أمير التتار جميع هؤلاء الأسرى على السواء .

جاء ذلك – والشيء بالشيء يذكر – فى الرسالة القبرصية ، التى بعث بها ابن تيمية إلى « سرجوان » أحد ملوك الصليبيين ، يطلب منه « افتكاك » من بيده من أسرى المسلمين ، ويذكره بموقف الدولة الإسلامية من أهل الذمة الذين أسرهم التتار .

وتبلغ سياسة الحرب فى الإسلام قمة السماحة فى موقف الرسول ﷺ عند فتح مكة ، وقد مكنه الله من رقاب قريش ، وعاد الذين أخرجوا من ديارهم أقوياء منتصرين .

إن أحد قواد الجيش الإسلامى يقول وهو يدخل مكة : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة .

وتبلغ هذه الكلمة الرسول ﷺ فيغضب ويقول : اليوم يوم المرحمة ، ويأمر بعزل هذا القائد .

ويدخل الرسول ﷺ مكة فى عشرة آلاف مقاتل ، وكان يركب على ناقته وهو مطأطئ الرأس تواضعًا لله وإشعارًا بحرمة بلده الحرام .

ثم يقوم على باب الكعبة فيقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

وينظر إلى قريش وقد تتابعت فى هذه اللحظات تلك الصور الدامية والمواقف الرهيبة التى كانت بينهم وبين محمد وأصحابه ، فيقول لهم : ما ترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

إنه لم يحكم فى رقابهم السيف ، ولم يأخذهم أسرى ، ولم يصادر أموالهم ، ولم يشترط عليهم لذلك أن يعلنوا إسلامهم . ولكنه جعلهم أحرارًا طلقاء ، آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

صورة ليس لها مثيل فى تاريخ الحروب بين قائد منتصر وأعداء مغلوبين . فلم يلبث الناس أن دخلوا فى دين الله أفواجًا ، وكانوا فى الطليعة المؤمنة التى انطلقت لإعلاء كلمة الله ونشر دعوته فى مختلف أرجاء الأرض .

وبعد ، فهذه جوانب أساسية من سياسة الحرب فى الإسلام ، قاطعة الدلالة على البواعث والأهداف الإنسانية لشريعة الإسلام فى الحرب ، حماية لعقيدة المؤمنين من المسلمين وأهل الذمة على السواء . ودفعًا للظلم والعدوان ، وقضاء على جبابرة الأرض الذين يستذلون الرقاب ، وعلى الأنظمة الفاسدة التى تشقى بها البشرية ، إرساء لقواعد العدل والأمن والحرية . . وهى شريعة لم تشهد الدنيا لها مثيلا فى تاريخ الحروب ولا فى تاريخ السلام .

٣٢

العلم والإيمان

حين رفعت الدولة شعار « العلم والإيمان » كان ذلك تأكيداً لانتمائها الحضارى ، وإحياء لمقوماتها الأصيلة وتاريخها العريق ، منذ كان لها وجود على هذه الأرض ، وعلى امتداد حياة الأمة العربية والإسلامية عمقا واتساعا بين الأمم .

على هذا الخط الواضح كانت مسيرتها ، لم تنحرف عنه أو تتخلف عن حمل رسالته وتحقيق أهدافه ، إلا فى الفترات التى تتخلل حياة كل أمة حين يدب فيها الفساد من الداخل أو تقع تحت وطأة العدوان من الخارج ، ثم لا تلبث أن تستعيد قوتها الذاتية وتستمد من خصائصها العريقة ما تتحدى به عدوان العدو ، وتنفى عن نفسها عوامل الضعف والتخلف ، وتستأنف انطلاقها على الطريق .

والدولة وهى تمثل الصورة الكلية للسلطة فى كل أمة ، لابد أن تستمد وجودها من ضمير هذه الأمة . ومن هنا يكون مبلغ التوافق أو التمزق بين ضمير الأمة

ومقوماتها وبين الأنظمة التى تقوم عليها الدولة .

ولهذا كان العلم والإيمان هو النموذج المتكامل لقيام الدولة التى تتوافر لها كل مقومات القوة المادية والمعنوية ، والتى توفر للأمة حياة تنتفى فيها التناقضات إلى حد كبير ، ويتحقق التوازن المادى والمعنوى بين الدولة والأمة من جهة ، وبين أفراد الأمة بعضهم وبعض من جهة أخرى .

والحقيقة التى ينبغى التركيز عليها فى هذا المقام ، هى أنه لا توجد أنظمة « جاهزة » للتطبيق فى كل دولة ، بحيث تحدث أثرها الفورى وتؤتى ثمارها وكأنها إنتاج صناعى مصبوب فى قوالبه ، ولكنها مبادئ عامة تتفاعل مع الزمان والمكان ، ومع الفرد والمجتمع . وتختلف فى قوة التأثير والتأثر بمقدار اختلافها — قربًا وبعدًا مع قوانين الفطرة ونواميس الحياة .

وإذا استعرضنا تاريخ العلم والإيمان على هذه المنطقة العربية منذ أقدم العصور ، نجد أنه كان الصورة المتميزة والطابع الغلاب ، الذى يتمثل فى الرسالات السماوية الكبرى ، وفى الحضارات المتعاقبة والمتنوعة فى كل مكان . كما نجد أن أقوى وأزهى فترات هذا التاريخ هى التى يتكامل فيها العلم والإيمان ، لأن كلا منهما يقوم على الآخر ، ويرتبط به ارتباط وجود وغاية .

فإذا انتقلنا إلى مناطق أخرى فى العالم الفسيح على اختلاف الدول والشعوب ، وعلى تعاقب العصور والأجيال ، وتنوع الأنظمة العقائدية فى الحكم والسياسة والاجتماع ، نجد أن البعد عن شعار « العلم والإيمان » فكرًا وتطبيقًا ، إنما يرجع فى الغالب الأعم إلى سوء الفهم أو سوء التطبيق أو غلبة النزعات المستبدة عند الأفراد والجماعات .

- سوء الفهم لطبيعة العلم والإيمان ، كليهما أو هما معًا .
- أو سوء التطبيق فيما كان يعرف بالحكومات الدينية وسلطان الكنيسة وبعض

صور الخلافة الإسلامية ، وفى الانحراف بالعلم وتسخير منجزاته نحو الهدم والدمار بدلا من تنمية المجتمع وإسعاد أفراده .

● أو غلبة النزعات المستبدة من وراء ذلك كله ؛ أو نتيجة لذلك كله .

ويمكن القول إن المجتمعات التى فصلت بين العلم والإيمان ، أو بين الدين والدولة ، إنما جاء ذلك نتيجة « رد فعل » تختلف قوة أو ضعفًا للواقع الذى عاناه هذا المجتمع أو ذاك ، وللرواسب التى أرهقت وجوده وضميره ، أو هروبًا من مواجهة هذا الواقع التى تتعقد مشكلاته عند بعض الشعوب .

هناك الدولة العلمانية ، والدولة الدينية أو الحكومة الدينية .

نماذج من الأنظمة الدولية التى نشأت فى بعض البيئات بأسبابها ومقوماتها ، فالدولة الدينية فى التاريخ السياسى اقترنت بسلطة الكنيسة وما تمثله من سيطرة « لاهوتية » على المؤمنين ، انحرف بها بعض « الآباء » إلى استغلال الإنسان والحجر على فكره وحريته ، واقتناء الإقطاعيات والعبيد ، ومحالفة الملوك والقياصرة الطغاة ضد الشعوب ، والمتاجرة بتذاكر الغفران . . حتى اشتعلت النفوس حقدًا ومرارة ، وشاهت صورة « الدين » فى أعين الناس ، وكان شعار أشهر ثورتين فى أوربا دليلا على ذلك :

● شعار الثورة الشيوعية : الدين أفيون الشعوب .

● وشعار الثورة الفرنسية : اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس !

هذه هى الدولة الدينية فى القاموس السياسى والتاريخى الغربى ، وهو اصطلاح نبت فى بيئات معينة ، وله مدلول معين ، ومن هنا نشأت فكرة فصل الدين عن الدولة . وليس الأمر كذلك فى التاريخ العربى الإسلامى ، لأن نظام الحكم المستظل بمبادئ الدين على الأرض العربية لم يكن الحاكم فيه يدعى أنه يستمد

سلطة إلهية مطلقة ، ولكنها بيعة وطاعة يقيدها العدل وحمل المسئولية بالأمانة الواجبة وإلا فلا سمع ولا طاعة .

حين تولى أبو بكر الخلافة الأولى فى الإسلام قال فى أول خطبة له :

« أيها الناس : قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن صَدَفْتُ[1] فقوّمونى . . . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم »

وقيل مرة لأبى بكر : ياخليفة الله .

فاستنكر ذلك وقال : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله .

وقال عمر عندما تولى الخلافة : من رأى منكم فىّ اعوجاجًا فليقومه !

فقال أعرابى : والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا .

ودخل أبو مسلم الخولانى على معاوية فقال : السلام عليك أيها الأجير !

فقال مَن عنده : قل السلام عليك أيها الأمير .

فقال : السلام عليك أيها الأجير .

قالوا : قل الأمير !

فقال معاوية : دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول .

قال أبو مسلم : إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها ، فإن فعلت وفاك سيدك أجرك ، وإلا عاقبك سيدها[2] .

---

(١) ملت عن الحق .

(٢) اختصرنا العبارة ونصها كالآتى : إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها . فإن أنت هنأت جرباها (دهنتها بالقطران) وداويت مرضاها ، وحبست أولاها على أخراها وفاك سيدك أجرك . وإن أنت لم تهنأ جرباها ولم تداو مرضاها ولم تحبس أولاها على أخراها عاقبك سيدها » .

وفى معنى المسئولية قول أمير المؤمنين : لو عثرت بغلة بأقصى العراق لأشفق عمر وهو بالمدينة أن يُسأل : لماذا لم يعبّد لها الطريق ؟ !

أما الدولة العلمانية فإنها وُجدت كذلك فى بعض المجتمعات إنقاذًا لها من الميراث الخانق لسلطان الكنيسة فى العصور الوسطى ، ومن التمزقات النفسية والفكرية التى كانت نتيجة غلبة الوثنية اليونانية والرومانية على الفكر المسيحى والتقاليد المسيحية فى أوربا ، مما باعد بينها وبين المسيحية فى صورتها الحقيقية ، كما وجد البعض الآخر من الدول الآسيوية فى علمانية الدولة مهربًا من تعدد الديانات والعقائد وتناقضاتها الحادة ، وخطر هذا التعدد على الأمن والوحدة الوطنية .

وليس فى التاريخ السياسى والدينى لهذه الأمة ، وخاصة فى الفترات التى كان فيها الدين والدولة سياج المجتمع وقوام الحياة فيه ، هذه الصورة المشوهة التى ألجأت تلك المجتمعات للتنكر للدين وفصل الدين عن الدولة ، فوقعت فيما هو شر وأنكى من تلك الحياة الكريهة المتنكرة .

° ° °

إن تاريخ مصر والعروبة منذ ميلاد البشرية على هذه الأرض كان هو تاريخ الدين . وعلى ثراها الطيب خطرت أقدام إبراهيم وموسى وعيسى وأمه العذراء البتول . ومن شعبها المؤمن كانت « هاجر » أم إسماعيل وكان أصهارُ محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين . وفى سبيل إعلاء كلمة الله والثبات على العقيدة كان الشهداء الأبرار من أتباع المسيح – عليه السلام – وفى صد أعداء الإنسانية خرجت الجيوش المصرية توقف الطوفان المدمر لجحافل المغول وتردهم على أعقابهم خاسرين . وفى سبيل حماية المقدسات الدينية والوطنية كان اندحار الاستعمار الصليبى ، وفى الثورة ضد الاستعمار البريطانى كانت الوحدة الوطنية على أروع

صورة ، وكانت الكنائس والمساجد معاقل ينادى منابرها القسس والشيوخ ، وفى معركة رمضان المجيدة كان هتاف النصر : الله أكبر !

إن مصر والأمة العربية وقد انتصرت فى معركة تحقيق الذات ، قد تجاوزت المرحلة التى نفثتها فيها الشعارات المجلوبة ، أو تصرفها عن أصالتها وشريعتها وضرورة الاجتهاد فيها والمتفقين لها بما استجد من مشكلات العصر ، سهولةُ استيراد الأفكار « الجاهزة » أو الانزلاق فى تطبيقات ليس لها فى التاريخ الإسلامى أو الواقع العربى جذور .

وإذا كان من أخطر ما تعانى الشعوب النامية هو أن يفرض عليها بصورة أو بأخرى أن تظل مجتمعات « استهلاكية » فى أنماط الحياة ، فإن هذا الخطر يكون أشد أثرًا حين يراد بهذه الشعوب أن تكون مجتمعات استهلاكية فى أنماط الفكر والعقيدة والحكم .

ونعود إلى دولة العلم والإيمان ، التى تقوم على شرعية الله فى إطار منهج متكامل تنتفى فى ظله أسباب التمزق الذى تعانيه مجتمعات تعزل الدين عن الدولة ، وتحصره فى أضيق الحدود ، وتسلبه مقوماته وفاعليته فى الحياة ، وتطلق الأهواء والشهوات بلا قيود ، وبذلك يتحول « العلم » وسائر نواحى النشاط الإنسانى إلى وحوش ضارية وأدوات مدمرة لكيان الإنسان وسلامة المجتمع . كما تنتفى فى ظل هذا المنهج أسباب ضياع الذات الذى تعانيه مجتمعات أخرى أنكرت الدين جملة وتفصيلا ، وبقدر ما وفرت للإنسان حاجته من الطعام حرمته من معانى وجوده النابعة من قوانين فطرته ، وإن حاولت أن تعوضه عن هذا الحرمان بألوان من الفنون والهوايات .

والدولة التى تقوم على العلم والإيمان ، تعرف للعلم قدره وأهميته ، فهى تأخذ بأسبابه وتعيش فى رحابه ، لا ترضى بالتخلف فى عصر يحاول أن يتجاوز

الأرض إلى آفاق الفضاء . وهى فى الوقت نفسه تبتغى وجه الله فيما تحاول من تطبيقات وما تحقق فى مجال العلوم من انتصارات ، فلا يكون هدفها السيطرة والاستغلال وتجارة الحروب ، ولكن تحقيق الخير وإشاعة الأمن وتوفير الرفاهية للإنسان ، ولنأخذ مثلا لذلك تفجير الذرة وغزو الفضاء .

● لو أن العلم والإيمان – وليس العلم وحده – هما أساس الحياة فى الدول « النووية » لانحصر تفجير الذرة واستخدامها فى مجالات علاج الأمراض واستصلاح الصحارى وتوفير الإنتاج ، والقضاء على مشكلات الجوع والمرض والتخلف بين بلايين البشر فى مختلف أنحاء الأرض ، ولم ينحصر استخدام هذا السلاح العلمى فى مجال الحروب وإرهاب الشعوب !

● وكذلك الأمر بالنسبة لغزو الفضاء . . . ما هى الدوافع التى تحركه والأهداف التى تشد إليها الأفكار والجهود ؟

وهل فرغت البشرية من استخدام المنجزات العلمية على وجه الأرض بما يحقق التقدم والرخاء ، فهى تلتمس لها مجالات أخرى لخدمة البشرية على أبواب السماء ؟

أم أنه سباق مجنون مجرد من « الإيمان » لم يكفه ما أحدثه على ظهر البسيطة من فتن ودمار وإهدار للأمن والأمان ، فهو يحاول أن ينتقل بميدانه إلى أجواز الفضاء ؟ !

إنه لا عاصم من هذه الأخطار التى تتهدد مستقبل البشرية على هذه الأرض ، إلا بانتصار القيم الدينية وسيطرة سلطان العلم والإيمان . وهذه مسئولية تكاد تلقى قيادها إلى الأمة العربية والإسلامية من جديد ، بعد أن أوشكت حضارة الغرب المادية على الأفول والانهيار .

٢٣

التطور والقيم الدينية

المجتمعات الإنسانية فى تطور دائم ، فهى لا تثبت على صورة واحدة ، ولا تجمُد على وضع معين ، ولكنها تتطور من حال إلى حال وتأخذ أشكالا مختلفة فى أساليب الحياة ووسائل المعيشة وطرائق التفكير.

فما هو موقف القيم الدينية من هذا التطور المستمر؟ .

وهل تستطيع هذه القيم أن تجارى الحياة فى تطورها ، وأن تلبى حاجات المجتمع المتغيرة من حال إلى حال ؟

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال ، لابد من وقفة عند معنى التطور والثبات .

إن الوجود بما فيه من مختلف الكائنات ، تحكمه قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل . فهذه الأفلاك فى حركتها الدائبة ، وهذه الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات ، تقوم على نظام ثابت وقواعد مُحكمة ولكل منها قانونه الذى يخضع له

ويسير عليه .

بلايين الكواكب والنجوم التى تسبح فى الكون ، لكل منها مدارُها الذى لا تحيد عنه ، ومجالها المغناطيسى الذى لا تتجاوزه .

الإنسان الذى يبدأ تكوينه من خلية واحدة ، فإذا هذه الخلية تتحول إلى جسم متعدد العناصر من لحم وعظم وغضاريف ودماء ، متعدد الأجهزة من قلب ورئة ومعدة وعين وأذن وأعصاب ، متنوع المشاعر من شجاعة وخوف ، من كرم وبخل ، من حب وكراهية . . . إلى غير ذلك من الأضداد .

عالَم النحل بما فيه من تخصص عجيب فى العمل حيث تقوم كل نحلة بعمل معين ، وبما فيه من هندسة عجيبة فى بناء البيوت التى تتكون من عدة غرف مسدسة الأضلاع .

النبات الذى تُلْقَى بذوره فى أرض واحدة ، ويُسْقَى بماء واحد ، ثم يَخرج بعد ذلك مختلفَ الأنواع والألوان والرائحة والطعم .

هذه الكائنات جميعها تحكمها قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، ومنها الإنسان الذى تحكمه قوانين فى خَلْقه وتكوينه ، كما يرتبط بقوانين أخرى فى حياته الاجتماعية ، هى القيم الدينية ، التى لا تتغير ولا تتبدل لأنها تتصل بفطرة الإنسان ومعنى وجوده فى هذه الحياة .

ومن هنا كان معنى الثبات فى القوانين الكونية بالنسبة للكائنات ، وفى القيم الدينية بالنسبة للإنسان ،

وإذا كان ثبات القوانين الكونية لايعتبر جموداً يعوق حركة الكائنات فى الكون ، ولكنه ضرورة تنظم وجود هذه الكائنات ومسيرتها . فكذلك القيم الدينية فى حياة الفرد والمجتمع .

ولْننظر فى هذه القيم الدينية كيف أنها ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، مهما تطورت

حياة الإنسان واختلفت أساليب تفكيره ومعيشته .

إن الدين فى جوهره تنظيم للصلة بين الإنسان وربه خالق الكون والحياة ؛ وتنظيم للصلة بين الإنسان والمجتمع الذى يعيش فيه ، وذلك على أسس مترابطة لا ينفصل أحدهما عن الآخر . فهو حين يقوم على الإيمان بإله واحد متفرد بكمال الصفات ، إنما يجرد البشر فى الوقت نفسه من دعوى الألوهية والاستعلاء والسيطرة ، ويبطل مزاعم الذين يرون لأنفسهم حقوقًا مقدسة أو غير مقدسة على غيرهم من الناس ، ويضع الجميع على مستوى واحد فى الحقوق والواجبات ؛ ثم لا يبقى لأحدهم فضل على الآخر إلا بما يقدم من عمل صالح يفيد الفرد أو المجتمع .

والدين حين يقرر مبدأ الجزاء وَيَعِد بالثواب والعقاب ، يقرر كذلك أن الله تبارك وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه ، وإنما هى حوافز وزواجر تتصل بالفطرة الإنسانية لتبلغ بالفرد والمجتمع الغاية من وجوده فى هذه الحياة .

والدين حين يقرر حتمية البعث والنشور ، إنما يقضى على فكرة « العدم » التى تُغرق الإنسان فى الشعور بالضياع والتفاهة ، وتقتل فيه معنى وجوده ، وتدفعه إلى اليأس والكآبة التى تحطم حياته ، أو الاستغراق المجنون فى الفردية وانتهاب الملذات ، وبذلك يعطى الدينُ للحياة قيمتَها ، ويرسم للإنسان رسالته فى هذه الحياة ، ويربطه بأهداف سامية تبعث فى نفسه معنى الخلود .

وعقيدة الإيمان بالله ، لا تستطيع الإنسانية أن تستغنى عنها فى أى عصر من العصور ، ولا فى أى مجتمع من المجتمعات ، لأن هذه العقيدة مرتبطة بالفطرة الإنسانية . وما يحدث لهذه العقيدة من قوة أو ضعف ، من استقامة أو انحراف ، إنما ينشأ نتيجة التوافق مع الفطرة الإنسانية أو التناقض معها فى الفكر والاتجاه .

فالفطرة الإنسانية تؤمن بوجود الله مبدع هذا الكون ، له الأسماء الحسنى ، وحده لا شريك له ، ولا معبود بحق سواه . فإذا انحرف الإنسان عن فطرته ، لا يستطيع حتى مع انحرافه أن يتخلى عن فكرة الإله المعبود ، ولكنه يخطئ فى تصور هذا الإله والتعبد له . ولهذا الانحراف عن الفطرة الإنسانية وما يؤدى إليه من خطأ التصور والعبادة صورٌ كثيرة .

فمن الناس من يعبد الأصنام ، أو يقدس بعض الحيوان .

ومنهم من يعبد البشر من الملوك والزعماء ، أو من الأحبار والرهبان والصالحين .

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ[1] وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ)[2] .

ومن هؤلاء الأحبار من تعتبر آراؤهم ونظرياتهم عند أتباعهم فى بعض المجتمعات المعاصرة « دينا » له قداسة الدين المنزل من السماء .

ومن الناس من يعبد المال ، أو الشهوات والأهواء :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً)[3] .

إن الإنسان حين ينحرف عن فطرته ، لا يستطيع أن يعيش فى فراغ عقائدى ، فهو يشغل هذا الفراغ ويلبى نداء الفطرة بتصور الإله على صورة ما . سواء كان على خطأ فى هذا التصور أو على صواب .

---

(١) علماءهم .

(٢) الآية ٣١ سورة التوبة .

(٣) الآية ٢٣ سورة الجاثية .

والقيم الدينية التي تنظم حياة الفرد والجماعة ، لها صفة الثبات والاستقرار والدوام ، لأنها تتصل بالفطرة الإنسانية التي لا تتغير ولا تتبدل :

(. . . فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)(١) .

إن رعاية حقوق الوالدين مثلا ، من القيم الدينية التي لا تتبدل ولا تتغير ، مهما تطورت حياة الإنسان واختلفت صور المجتمع :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)(٢) .

وكذلك المساواة بين البشر دون النظر إلى الجنس أو اللون أو الغنى أو الفقر ، وتقويم كل امرئ بما يحسنه لا بما يدعيه من حسب ونسب وثروة وجاه ، وإقامة العدل ، والإحسانُ فى القول والعمل : والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، هذه المبادئ العامة وغيرُها مما يشكل الصورة الكلية للدين ، لا يمكن أن تتغير موازينها أو تتبدل آثارها على اختلاف الزمان والمكان ، لأنها حقائق ثابتة وقيم خالدة ، كما لا يمكن أن تتغير أو تتبدل مسيرةُ الأفلاك وسنن الطبيعة فى الكون والحياة .

وإنما يجرى التغيير والتبديل داخل إطار هذه الصورة الكلية للقيم الدينية ،

---

(١) الآية ٣٠ سورة الروم .

(٢) الآيتان ٢٣ و ٢٤ سورة الإسراء .

وانطلاقًا منها لمواجهة تطور الحياة وتجدد صورها ، وقد كفلت هذه القيم الدينية تلبية سمحة لكل حاجات البشر ، واستجابة غير محدودة لكل تطلعات الفكر الإنسانى .

بل إن القيم الدينية فيما احتوته من مبادئ عامة ، حثت الإنسان على أن يستمتع بزينة الحياة وألا ينسى نصيبه من الدنيا ، وأن يجاهد فى عمارة الأرض التى استخلفه الله فيها ، ولم يقيد الدينُ ذلك إلا بالحدود التى تحمى الفرد والمجتمع من غوائل الإسراف والبغى . كما أن الدين فى مجال الفكر أطلق حوافز الإنسان للنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وأثار أشواقه للكشف عن عالم الغيب فى الطبيعة وما وراء الطبيعة .

والإنسان قد يتطور أسلوب تفكيره ، بما يكتسب من تجارب العلم والمعرفة ، وللدين فى هذا قِيَمُهُ التى تحث على احترام العقل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، وقد يتطور أسلوب حياته من البداوة إلى الحضارة ، وللدين فى هذا أيضًا تَوْجِيهُهُ إلى أن الله سخر للإنسان ما فى الأرض جميعًا .

فهل هذا التطور فى أساليب التفكير والحياة ، يستدعى بالضرورة تغييرًا وتبديلا فى القيم الدينية الثابتة ، أو الانصراف عنها إلى قيم أخرى تحل محلها وتشغل ما تخلفه من فراغ ؟ . .

إن التطور العلمى فى الوصول إلى القمر ، لم يقتض الخروج على قوانين الطبيعة الثابتة ، ولكن هذا التطور تم من خلال هذه القوانين التى جعلت لكل من الأرض والقمر منطقة جذب محددةً أبعادُهُا ، فإذا انطلق الإنسان بمركبته وتجاوز منطقة الجاذبية الأرضية ، يظل فى اتجاهه البعيد حتى يصل إلى منطقة الجاذبية الأخرى التى تقوده إلى الهبوط على القمر بسلام .

وكذلك التطور الذى يحققه الإنسان فى حياته ، لا يستدعى بالضرورة الخروج

على القيم الدينية ، أو إبدالها بقيم أخرى غيرها ، لأنه إنما يحقق هذا التطور من خلال ما تدعو إليه هذه القيم التى تستهدف تحقيق معنى وجود الإنسان فى هذه الحياة .

لماذا إذن نشأ الصراع فى بعض العصور ، وفى بعض المجتمعات ، بين الدين والعلم وبين الدين والحياة ؟ .

الحقيقة أن الصراع لم ينشأ على هذه الصورة . ولم يكن هناك صراع بين الدين والعلم ، ولا بين الدين والحياة ، لأنه لا تعارض بين الدين وبين العلم والحياة .

وإنما نشأ الصراع فى أوربا ، فى العصور الوسطى ، بين رؤساء الدين ، وبين الرواد من علماء الفلك والجغرافيا . حين اصطدمت الكشوف العلمية لهؤلاء الرواد ، بما لهؤلاء الرؤساء وغيرهم من تفسيرات للكون والحياة .

من هؤلاء الرواد « نيقولا كوبرنيكوس » الذى أعلن نظرية تعتبر اليوم من البديهيات ، ولكنها أثارت فى ذلك الوقت عاصفة من الإنكار الشديد ، وهى أن الشمس لا تدور حول الأرض ، ولكن الأرض ومعها الكواكب السيارة هى التى تدور حول الشمس .

ولولا أن « كوبرنيكوس » توفى بعد ساعات من صدور كتابه الذى ضمنه هذه الحقيقة العلمية ، لما نجا من العقاب الأليم الذى تعرض له من جاء بعده من العلماء[1] .

ومن هؤلاء « غاليليو » الذى تابع جهود سلفه وأثبت نظرية دوران الأرض ، فقاده ذلك إلى الوقوف أمام محكمة التفتيش فى روما ، ليحاكم بتهمة الكفر والإلحاد ، ويلقى من أجل ذلك السجن والتعذيب والإهانة والمصادرة ، ثم بموت

---

(١) كتاب تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم ، تأليف إسماعيل مظهر .

بعد ذلك شيخًا محطمًا ، محرومًا حتى من الصلاة على جثمانه ؛ منبوذًا بعيدًا عن أهله ومواطنيه .

ولقد ظل الصراع محتدمًا بين آباء الكنيسة والعلماء عدة قرون حول هذه الحقائق وغيرها من الكشوف العلمية ، وحول مصادرة حرية الفكر باسم الدين ، الأمر الذى أحدث فجوة كبيرة بين التصور الدينى للكون والحياة كما يريد أن يفرضه رؤساء الدين هناك ، وبين الحقائق العلمية التى غزت العقول وأصبحت من القضايا المسلم بها فى منطق العقل والواقع .

ومن هنا اهتزت الصورة الدينية فى الغرب ، وانحسر سلطان الدين عن مكانه الطبيعى فى النفوس ، وأصبح عند القلة المتدينة طقوسًا يؤدونها دقائق كل أسبوع .

هذا فى الغرب ، فماذا فى الشرق ؟

إن الأمر قريب من ذلك . فالدين فى جوهره برىء مما ألصق به فى تلك المجتمعات . لقد حكموا على الدين من خلال مواقف بعض المنتسبين إليه ، ومن خلال الصور التى انحرفت بالناس عن حقيقة الدين وقِيَمِهِ وأهدافه ، حتى قال بعضهم إنه « أفيون » الشعوب . لأن الدين بتلك الصورة كان مسخرًا لدعم سلطان القياصرة ، وفرض العبودية والاستغلال على الجماهير ، وصرفهم عن الجهاد لاسترداد حقوقهم وكرامتهم وبناء مجتمعهم على أساس من الكفاية والعدل .

وللفيلسوف برتراند راسل رأى يؤكد عمق الشعور الدينى وارتباطه بالفطرة الإنسانية ، حتى عند أصحاب المذاهب المادية . ويرى أن هناك رباطًا خفيًا لا يمكن التخلص منه عند هؤلاء . يبدو ذلك واضحًا فى المقارنة بين الفكر اليهودى والفكر المسيحى والفكر الماركسى ، بل والفكر النازى .

وهو يضع لبيان ذلك قاموسًا فى تفسير بعض الألفاظ ذات الدلالة الدينية والماركسية فيقول :

- يهواه = المادية الديالكتيكية .
- المسيح = ماركس .
- الأخيار = سواد الشعب
- الكنيسة = الحزب الشيوعى .
- الظهور الثانى = الثورة .
- جهنم = عقاب الرأسمالية .
- النعيم الموعود (الجنة) = الدولة الشيوعية الواحدة[1] .

وهذه حجة للدين على منكريه ، ودليل على أصالة الفكر الدينى وامتداد أثره واستمرار قانونه فى الحياة ، وإن خالطه الانحراف عن الجادة وسوء الفهم للصورة الحقيقية للدين .

وتلك هى أزمة الدين فى المجتمعات التى انحسرت فيها القيم الدينية عن واقع الحياة . وهى أزمة لا تقوم على تعارض بين القيم الدينية والتطور ، ولكنها تقوم على مواريث فكرية واجتماعية استقرت هناك ، نتيجة الصراع المزعوم بين الدين والعلم ، أو بين الدين والحياة .

وليس الأمر كذلك بالنسبة للمجتمع العربى . والإسلامى ، ومواريثه من القيم الدينية الأصيلة

---

(١) كتاب تاريخ الفلسفة الغربية ، تأليف برتراند راسل . ترجمة الدكتور : زكى نجيب محمود . الجزء الثانى . صفحة (٩٦) .

المراجع

١ - القرآن الكريم .

٢ - كتب السنة .

٣ - سيرة النبى : لابن هشام .

٤ - نهج البلاغة : للإمام على بن أبى طالب .

٥ - الطبقات : لابن سعد .

٦ - سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبى .

٧ - عمر بن عبد العزيز : لابن كثير .

٨ - إحياء علوم الدين : للإمام الغزالى .

٩ - الحسبة فى الإسلام : للإمام ابن تيمية .

١٠ - الرسالة القبرصية : للإمام ابن تيمية .

١١ - العلم يدعو للإيمان : ا . كريسى موريسون ، ترجمة محمود صالح الفلكى .

١٢ - مع الله فى السماء : الدكتور أحمد زكى .

١٣ - أصوات لا تسمع : ب . قدر يافستف - ترجمة د . سيد رمضان هدارة .

١٤ - الإنسان ذلك المجهول : الكسيس كاريل - ترجمة شفيق أسعد فريد .

١٥ - تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم : إسماعيل مظهر .

١٦ - تاريخ الفلسفة الغربية : برتراند راسل - ترجمة د . زكى نجيب محمود .

١٧ - لبيك . . . (طبعة اقرأ) : محمد كامل حتة .

١٨ - سفر القرآن : محمد كامل حتة .